منشــورات أقــلام

ميشيل ماركوفيتش

العلم و الايديولوجية

ترجمــة

أحمــد السطاتــي



السلسلة الثقافيــة : ١



منشــورات أقــلام

ميشيل ماركوفيتش

العلم و الايديولوجية

ترجمــة :

أحمــد السطاتــى

السلسلة الثقافيــة : ١

تصدير

دخلت كلمة «ايديولوجيا» مؤخرا قاموسنا السياسي والفكري والاجتماعي، وقد تداولتها أقلام كثيرة ، وزجت بها بمناسبة أو غير مناسبة ، في الكتابات الصحفية والادبية والخطب السياسية . وفي نظرنا أن لجدة كل كلمة دخيلة سحرا أو اغراءا يجعل الاختيار يقع عليها ويوقع بها في بعض الاحيان . ان استعمال بعض الكلمات دون تحديد مفهومها ودون معرفة المناخ الذي نشأت فيه والدلالات التي اكتسبتها عبر تطورها في سياق التداول والتفاعل يجعل هذه الكلمات عرضة للبس والخلط والغموض ، وينجم عن ذلك أن المصطلح أو الكلمة الجديدة بدل أن تساهم في اغناء الفكر وتزيد من فاعليته وقدرته على البحث والتحليل تغدو أداة تشويش وارتباك وتضليل .

وان اقدامنا على ترجمة هذا البحث الوجيز نعده اسهاما متواضعا في جلاء الغموض الذي لابس هذه الكلمة . أو على الاقل ادراك المضامين التي حملتها في صيرورتها التاريخية ، واذا كانت الصراعات الايديولوجية تطبع عصرنا الحالي وتميزه ، فما أحوج القارىء العربي العادي الى بحث مختصر ومركز يوضح له معاني وأبعاد هذا المصطلح الجديد وعلاقته بمختلف المفاهيم الاخرى من علم وفن وفلسفة وما الى ذلك .

وقد كان بودنا أن نقوم بتلخيص لهذا البحث أو نعلق عليه ضمن هذه المقدمة ، لكننا نعتقد أن البحث المترجم بالذات ملخص ومركز ، أما التعليق بقصد التوجيه واصدار أحكام قيمة فاننا نعتقد أن وعي القارىء العربي ليس

فى حاجة الى حماية أو وصاية ، قد نختلف مع الكاتب فى بعض المنطلقات ولا نوافقه فى بعض الاحكام ، ولكن أفكار الغير مهما تباينت مع أفكارنا لاترهبنا ، وتياراته المذهبية لاتضايقنا ، وفى اعتقادنا أن عبقرية الامة العربية تجلت دوما فى قابليتها للتفتح والتعرف والتفاعل والاخذ والعطاء ٠ وان جيلنا العربى الصاعد قادر كسلفه على استيعاب التجارب الانسانية وتجاوزها طبقا لمقومات شخصيته ومثله وتطلعاته ٠

المترجم



العلــم والايديولوجيــة *

تجرى فى بلدنا فى المدة الاخيرة ، وخارج حدود بلادنا ، مناقشـــة حادة بين الماركسيين حول تحديد مفهومى ، العلم ، والايديولوجية ، وتمييز اللحظة العلمية من اللحظة الايديولوجية فى المذهب الماركسى •

ولا تخلو المشكلة من اهمية عامة ، قد تتجاوز حدود الاختلاف بين انصار مذهب واحد • لقد حقق العلم تقدما على الاقل فى العالم المتحضر مكنه من تحديد العلاقة بين الانسان والطبيعة • بالعلم تحــرر الانســان من عبوديــة القــوى الطبيعية ، واستطاع الى حد كبير أن يمتلك ناصية هذه القوى ، بيد أن علاقة الانسان بالمجتمع أضحت تخضع بصفة خاصة للايديولوجيا ، ويمكن ان تقول بأن عصرنا اليوم هو عصر الاختلافات والصراعات الايديولوجيات أكثر من اى عصر سابق •

ومن هنا ، تبرز مشكلة ، تكمن كلها فى خلق انسجام وتوافق بين العلم والايديولوجيا •

من الواجب أن يصبح العلم أداة مسخرة فى يد انسان يستمد وحيه مــن ايديولوجية انسانية ، ومن الواجب كذلك أن تقوم الايديولوجيا الانسانية ذات الطابع التقدمى على العلم وتعتمد عليه ، هذا اذا كنا نرغب حقا فى أن يسيطــر الانسان على الطبيعة سيطرة كبيرة ، ويتحرر ذات يوم من عبودية قوى المجتمع العمياء • ويحز فى نفوسنا ما نلاحظه من استغــلال قوى للعلــم ، وللمقاصــد اللاانسانية ، وما نراه من سورات ايديولوجية محمومة لاتقوم على اى اساس من المعرفة العلمية للعلائق الواقعية ، ولا لاتجاهات التطور فى المجتمع الحديث •

(*) عن المجلة اليوغوسلافية الفصلية :
Les problèmes actuels du socialisme. N° 55. (octobre-Decembre 1959)

التبــاس المفاهيــم :

ان عدم التحديد الدقيق لمفهوم العلم ، ومفهوم الايديولوجيا بصفة خاصة يقف حجر عثرة أمام خلق انسجام وتوافق بين هذين الشكليــن من اشكــال المعرفة الاجتماعية ، ولعل احد الاسباب المباشرة لكثير من الغموض الذى يسود العالم الحديث يكمن فى عدم التحديد الدقيق للالفــاظ ، وفى تعدد الــدلالات للكلمات التى تروج كثيرا فى الجدل السياسى والفلسفى ، وتدخل فى الدعاية الايديولوجية . ومن البديهى أن تكون لهذا الالتباس جذور عميقة ضاريــة فى اختلاف التجارب ، والافكار المبيتة ، والتقاليد ، سيما فى اختلاف المصالح بين الطبقات الاجتماعية . على أن هذا الالتباس اللفظى والتصورى كثيرا ما نلجــا اليه عن قصد وبنية قهر الخصم الايديولوجى ، واظهار أفكاره فى زى عابث ، اذ نلبس الفاظ خصمنا معان مخالفة ، ونعمد الى احداث تغيير فى افكاره ليصبح من الميسور علينا رفضها فيما بعد .

كثيرة هى الامثلة التى يمكن ايرادها عن عدم وضــوح مفهومــى العلــم والايديولوجيا وضوحا كافيا ، ألم يختلف العلماء أنفسهم حول تقرير الصبغــة العلمية لمؤلف ما ، فالذين ينزعون منزعا وضعيا يبعدون عن دائرة العلــم كل وصف لايتسم بالدقة للحوادث ولتجاربنا المباشرة ، بل يذهب البعض منهم الى أن كل توكيد واثبات لايخضع لتحقيق تجريبى شخصى ضرب من العبــث ، وبالمقابل هناك طائفة اخرى من العلماء ترى أن الالفاظ السياسية اليومية وكل وصف لرؤى المستقبل البعيد ، ومعايير النشاط العلمى ، والتاملات النظريــة المجردة حول العالم ، ومعنى الحياة ، لها صبغتها العلمية ، كما ان المؤسســات التى تزكى اطروحات الدكتوراة ، وتحكم على بعض الآثار بالعلميــة ، وتقــوم بتعريف المهن العلمية تجعلنا نتساءل عن طبيعة الاعمال التى يمكن أن تدخل فى دائرة العلم ، وعن الحدود الفاصلة بين النشاط العلمــى من جهة والروتيــن والدعاية الايديولوجية وكل تركيب تعسفى لرموز منطقية او رياضية من جهــة أخرى .

اما فيما يرجع الى مفهوم الايديولوجيا فان الابهام كثير جدا ، والدلالة السائدة لهذا المفهوم هى كونه عبارة عن «جملة أفكار لحركة اجتماعية» ، وتبعا لهذا المعنى يمكن ان ينسحب المفهوم على الماركسية والنزعات العمالية، والعرقية، والاشتراكية القومية ، والتحررية ·

اما فى الادب الماركسى ، فثمة دلالة واسعة الانتشار لهذه الكلمة ، اذ يقال غالبا بان اشكال الوعى الخاصة لهيئة اجتماعية (من سياسة وخلق ودين) اشكال ايديولوجية تؤلف فى مجموعها البنية الفوقية للاساس الاقتصادى الذى يقوم عليه مجتمع ما فى عسر من العصور ·

ثمة فرق ــ ولا نقول تضاربا ــ بين هذه الدلالة وتلك التى كان ماركس وانجلز يلبسانها لهذه الكلمة فى الآثار التى اصدراها خلال فترة شبابهما ، لاسيما فى كتاب (الايديولوجيا الالمانية) · فالايديولوجيا فى نظرهما وعى اجتماعى تغلفه روح الطبقة ، وتنعكس فى ظله قيم الشرف وعلائقها انعكاسا ناقصا ، ومقلوبا ، وكاذبا · اذ لم يكن ماركس ولا انجلز يعتبران مذهبهما ايديولوجيا ، بل علما ، ولذا أطلقا عليه (الاشتراكية العلمية) ·

من الماركسيين اليوم من يسعون جاهدين للاحتفاظ بهذا الشرح البدائى الذى فسر به ماركس معنى الايديولوجيا ، وقد استندوا الى هذا المعنى فى انتقادهم لما أصاب الماركسية الراهنة من تشويه ، وذلك حرصا منهم على الاحتفاظ للمذهب بطابعه العلمى وحذف العناصر الايديولوجية منه ، بيد انهم يصطدمون بمقاومة عنيفة من اولائك الذين يتصورون الماركسية ايديولوجيا فى الدرجة الاولى ، ايديولوجيا تضع اهدافها السياسية فوق كل أهداف أخرى ، خلقية كانت أو سياسية ، وحتى لو كانت اقتصادية ، فالحزب هو الحكم الاعلى الذى يحتكم اليه فى جميع القضايا (اجتماعية كانت او فلسفية أو فنية) ، والخطة التوجيهية للحزب هى المعيار الدقيق لجميع القيم (سواء كانت تتصل بالحقيقة أو التقدم او الجمال الفنى) ·

ولن نطمئن لغلو هؤلاء ولا لغلو أولائك ، فنحن نطلق اسم (التعديليين) Révisionistes على الذين يعتبرون الماركسية مجرد ايديولوجيا ، ويبدو

اليوم واضحا ، لاسيما بعد مرور ما يزيد على قرن من الزمان على كتاب ـ الايديولوجيا الالمانية ـ ان الماركسية أضحت بدورها ايديولوجيا ان لم تكن أكثر من ذلك ، فهي ايديولوجيا في جدتها ، وفي علاقتها الحية بالواقع • ان الوعي الذي لايقنع بالملاحظة البسيطة للحوادث ولا بالتقديرات المحايدة الباردة (المبنية فقط على معرفة القوانين الموضوعية للتطور) وانما يتطلع الى الاشياء ، ويختار من بين الممكنات المعروضة عليه أفضلها واكثرها ملاءمة ، لايمكن ان تقول انه مجرد وعي علمي جاف أو عقلي محض ، بل وعي ارادي ، محرك ، ومقوم •• وهو بالتالي وعي ايديولوجي •

ويميز نقاد الايديولوجيا في تحرياتهم نوعين من الايديولوجيا : الايديولوجيا الثورية والايديولوجيا الرجعية ، وهنا تكمن الصعوبة ، اذ كيف يمكن للايديولوجيا أن تكون ثورية اذا كانت انعكاسا ناقصا ومقلوبا للواقع ؟ اننا لن نقوى على قهر قوى المجتمع العمياء ما دمنا نعتمد الاخطاء وما دامت الاوهام تمسك بتلابيبنا •

كما أننا لن نطمئن الاطمئنان كله الى التأويل الذي يعتبر الماركسية مذهبا ايديولوجيا ، لانه يؤدي بنا عمليا الى اهمال فظيع للاساس العلمي الذي يقوم عليه المذهب الماركسي ، اذ كيف يمكن الاستغناء عن تهيىء الافكار للحركة العمالية ، والتخلي عن اعداد البرامج لاحزابها اعدادا يقوم على التحليل العلمي الموضوعي للحالة الراهنة ، وعلى اعتبار اتجاهات القوانين الموضوعية للتطور ، والاكتفاء فقط بالبرامج والافكار التي يفرضها القادة وتفرضها التجمعات الحزبية فرضا تعسفيا تسقط فيه من حسابها كثيرا من الحوادث التقنية والاقتصادية والسوسيولوجية والسيكولوجية • اننا اذا كنا نريد أن نفرض على العلوم الاجتماعية (وعلى الفن) أطرا نظرية ، فان النتيجة المنتظرة هي ركود هذه العلوم كما في بعض البلاد التي تتبنى الاشتراكية •

ولاشك أن الماركسية التي يتصورها البعض على هذا النمط تشكو من نفس الاخطاء التي انتقدها ماركس في عهده عندما تعرض للايديولوجيا البورجوازية ، فالايديولوجيا بهذا المفهوم ولو زعمت بانها علمية تظل في حقيقة

امرها وعيا خاصا لطائفة اجتماعية ضيقة ولعلاقتها بالمجتمع ، اى وعيا محدودا وناقصا وكاذبا .

هذه التحولات فى معنى كلمة ايديولوجية ومضامينها لدى مختلف الاوساط الاجتماعية تجعل من العسير أن نتبين الاشياء بوضوح وتدعنا عرضة فى مناقشاتنا لمواقف شتى ، فهل ينبغى اذن أن نخلص الماركسية من كل عنصر ايديولوجى ؟ وهل من الضرورى أن نتجاوز النزعتين : العلمية ، والتعديلية ؟ أم هل نكتفى فقط بتوكيد الطابع العلمى ؟

للخروج من غمرة هذه القضايا بتصور منطقى لابد فى رأيى من تحديد وتحليل مفهومين كبيرين هما : (العلم) ، و (الايديولوجيا) .

مفهـوم العلـم

عيوب التصور الوضعي للعلم :

المعنا ، فيما سبق ، الى ما يجب اعتبارهما تصورين مقابليـن للعلـم اذ سيحددان لنا مجال الحركة ، أما أحدهما فيحصر العلـم فى حدود التجربـة بمعناها الضيق ، وأما الثانى فيقطع كل علاقته بالتجربة والممارسة الاجتماعية ٠

ويرى عدد كبير من العلماء الاخصائيين ممن ينزعون منزعا وضعيـا ان جوهر العمل العلمى يكمن فى ملاحظة الحوادث ملاحظة أقرب الى الصحة ، وفى تصنيفها ووصفها ، ويستندون فى هذا احيانـا الى قولة «نيوتـن» الشهيـرة (hypothese Non Fingo الفرضية ليست خلقا) حيث يطلب من العالـم الا يدلى بنظريات مشبوهة ، ولا ينقاد الى التعميمات والتراكيب الواسعة ، كل عمله يكمن فى تسجيل ظواهر الواقع المسلم بها ، وادخال نوع من النظام فـى جملة الوقائع الحاصلة ، وكثيرا ما نعثر على أعمال من هذا القبيل عندما نتصفح الكتب التى تصدرها الكليات وكذا المؤلفـات التى تطبعهـا الاكاديميـات ، او المجلات العلمية من (تواريخ لبعض الاحـداث ، سرد للمصـادر المثبتة فـى الارشيفات ، وصف مفصل للوحات وابنيـة قديمة ، عادات شعبية ، انـواع حيوانية ونباتية ، أعراض ودروس تتصـل ببعض الامراض ، خـواص بعض المركبات الكيمائية ، اجوبة تتعلق ببعض الاختبارات الخ ٠٠) ٠

ان اعمالا من هذا القبيل تؤلف جزءا من العلم . بيد انها ليست سوى الخطوة الاولى فى طريق البحث العلمى ، لان العلم لايقتصر على الوصف فقط ، بل يشرح ويحدد القوانين العامة لعلائق المعلوم بالمجهول ، ويقترح بعد هذا الفرضيات الرامية الى اكتشاف هذه العلائق ثم يتحقق منها عن طريق التجربة المنظمة ، ان الموقف الانسانى فى مجال تطور المعرفة العملية موقف حى جدا ، وخلاق جدا وللفكر النظرى دور عظيم جدا فى هذا المضمار لدرجة لايكاد يؤمن بها بعض الوضعيين .

ولعل «نيوتن» لم يكن يعى بأن اولياته الواضحة عن فلسفة الطبيعة رغم ما بدا له من وضوحها وبداهتها كانت تكتسى فى معظمها طابعا فرضيا . ان الانظمة المتخلفة فى ميدان العلم هى التى ما تزال اليوم واقفة فى المرحلة الابتدائية التى تعتمد الوصف وتجميع المناهج ، والمواد المتناظرة ، أما الانظمة المتطورة ، مثل الفيزياء النظرية فان استعمال التجريد ، والرموز ذات الدلالة العامة ، والمناهج الرياضية ، بما فيها من استنتاجات شكلية ــ يجرى فيها بصورة واسعة جدا ، بات من الصعب معها الوقوف على نقط اتصال بين هذه المنظومات وعلوم كـ (الاثنوغرافيا ، والجغرافيا ، وعلوم الاجتماع التجريبى) .

وقد ادخل الوضعيون المحدثون فى اعتبارهم هذا الفرق ، وحاولوا تفسيره ، ولذلك قسموا حقل العلم كله قسمين متميزين من بعضهما تميزا كاملا : فى احداهما توجد (القضايا التركيبية) التى تنحدر من علوم تجريبية تصف مختلف التجارب التى نحصل بواسطتها على معارف جديدة ، أما فىالقسم الآخر فتوجد (القضايا التحليلية) التى تنحدر من الرياضيات والمنطق الصورى، وهى فى رايهم قضايا لا علاقة لها باحداث الواقع ولا بتجاربنا ، ولا نحصل بواسطتها على اية معرفة جديدة ، انها تشرح فقط وبطريقة اخرى ما سبق ان عرفناه : (تصوغ فى صورة صريحة ما هو كامن ضمنيا فى دلالات الالفاظ المستعملة) .

ان تقسيم العلم بهذا الشكل الحاد الى قسمين متمايزين يجعل منالعسير التوصل الى تعريف وحيد لمفهومهما، كما انالمنطق والرياضيات من جهة أخرى

يجرى تصورهما على نسق حر يبيح اللعب المقصود بالرموز طبقا لقواعد شكلية اختيرت هى ايضا لهذه الغاية ، وهذا ما يشير الى مبدأ كارناب الشهير ـ مبدأ التجاوز ـ بمقتضاه يسمى كل امرء حرا فى أن يضع لنفسه منطقه الخاص ، على أن يتقيد ببعض الشروط الشكلية ، والنتيجة النهائية لهذا المبدا هى سيادة النسبية والذاتية ، اذ تصبح لكل واحد حقيقته الخاصة به ، وفى هذا الخضم من الحقائق الفردية المتباينة لاتقوى أية حقيقه على الادعاء بأنها موضوعية ٠

لاريب فى أن مفهوم الطبيعة ينبغى أن يكون بطبيعته محددا تحديدا يبعده عن ساحة الانظمة الرمزية التى تتسم بطابع تعسفى واصطلاحى والتى ليست فى واقع الامر وفى أحسن الاحوال سوى لعب منسق ببراعة متناهية ٠ ان بعض الرياضيين والمناطقة يعتقدون باخلاص أن نظرياتهم لاتمت الى الواقع بصلة ، وان منطلقهم الذى يصدرون عنه اصطلاح تخيروه عمدا ، وان الامر فى النهاية لايعدو ان يكون لعبا بالرموز ، ومع هذا فقد تجاوزت نظرياتهم حدود ما كانوا يظنون عندما وجدت تطبيقها الهام فى ميدان العلوم التجريبية ، وهذا ما يفسر بأن هناك مقاييس واسسا ضمن كل نشاط حر يعتمد الرموز ، بل ان هذه المقاييس اكثر قوة من تلك التى يصوغها اصحاب المنطق الوضعى ، وهم أنفسهم يستعملونها فى ممارستهم من حيث لايشعرون ٠

العلم والميتافيزياء :

ينبغى كذلك أن نحدد مفهوم العلم تحديدا يميزه تمييزا دقيقا من الفلسفة الميتافزيائية غير العلمية ، وقد بذل أصحاب النزعة الوضعية قصارى جهودهم فى هذا المضمار ، ولكنهم بسبب شطحاتهم ذهبوا مذهبا قصيا حينما اعتبروا كل فلسفة تكاد تكون ميتافزياء ، ولم يعترفوا بالصبغة العملية الا لذلك القسم من المنطق الذى يعالج موضوع اللغة من حيث مبناها ومعناها واستعمال الفاظها ٠ اما الموضوعات الفلسفية : ما يدور منها حول علاقة الفكر بالواقع الموضوعى ، وحول قوانين الوجود العامة ، ومسائل القيم ، والمعايير الحقيقية والجماليه ، بله المسائل التقليدية فى الفلسفة النظرية كقضية الاله ، وخلود الروح ، واللا نهاية ، وانقسام العالم ، ومعنى الحياة ، فكلها مسائل اعتبروها

ضربا من العبث ما دامت لاتربطها أية آصرة بميدان العلم ، فلا هى من قبيـل المسلمات التحليلية ما دامات تدعى بأن فى امكانها اعطاء فكرة عن العالم ، ولا هى بالقضايا التجريبية ما دامت لاتستجيب لمبدأ التحقـق أو التصديـق ، اذ لايمكن التحقق منها عن طريق تجربة ماثلة من طرف الشخص الذى يتفكر فيها، ويرى الوضعيون المحدثون أن نفس المصير مكتوب للموضوعات الايديولوجيـة التى لاتعدو ، هى الاخرى ، أن تكون ضربا من العبث ٠

من الواضح أن مثل هذا التصور قد أضحى غير مقبول اليوم : اولا ، لان عددا كبيرا من الموضوعات التقليدية فى الميتافزيقا ليس ضربا من العبث مادمنا نشرحها ونفهمها ، وان كنا لانقبلها ولا نقول بها ، وثانيا ، لان عددا من القضايا التى تتصل سواء بنظرية المعرفة أو علم القيم ، أو الاخلاق ، أو الجمال ، وحتى بعض المبادىء الاساسية فى الانتولوجيا فوق كونها بعيـدة عن العبث تعتبـر قاعدة نظرية لا محيد عنها للمعرفة العلمية ٠

واخيرا نلاحظ بأن النقد الوضعى للميتافزيقا نفسه ينطلـق من بعض المبادىء (مثل مبدأ التحقق أو التصديق) الـذى لايمكن ادخالـه لا فى صلـب القضايا التركيبية وبهذا المعنى يصبح ، هو الآخر ، ضربا من العبث ، ولـذا تظل مشكلة تحديد العلم اعتمادا على معارضته بالميتافزيقا النظرية مشكلة قائمة رغم ما بذل الوضعيون من جهود ٠

العلم والدعاية الايديولوجية :

من الضرورى لتحديد مفهوم العلم ، تحديدا دقيقا ، التمييز بين نوعين من العبارات اللغوية : نوع تفصح فيه العبارات عن معرفة موضوعية عقليـة ، ونوع تفصح فيه العبارات عن مصالح وأهواء ومثل لفرد أو طائفة اجتماعيـة ، وهذا الفرق لايمكن مراقبته من الخـارج بيسـر عن طريق الصيغـة اللغويـة للعبارات ، فكلا النوعين يفصحان فى صيغة الحال التقريرية وكأنهما يثبتـان شيئا معطى من الوجهة الموضوعية او شيئا ينبغى أن يتحقق بالضرورة ٠

كل ما نحصل عليه من الناحية الموضوعية فى هذا المجال وفى أحسن الاحوال ، هو الامكان فقط ، امكان تحقيق بعض الصبوات والاهداف الذاتية ، وهذا الامكان ليس سوى استرسال لتيار مقبل من الاحداث ، وليس أبدا مصيرها المحتوم .

والعلة التى من اجلها تفصح عن هذه الرغبات والمطامح فى صيغة الحال التقريرية بسيط جدا ، فهى أجدى وسيلة لحمل أولائك الذين يتعلق بهم أمر انجاز هذه الاهداف والرغبات ، على العمل عملا تاما كاملا ، وفى أدب الدعاية أمثلة كثيرة لهذا النوع أورد منها ما يحضرنى الان وأقتبسه من مقالة لزاميران حول (ثورة اكتوبر الكبرى والتحول الجذرى فى العلاقات القومية بالاتحاد السوفياتى) يقول : «ان النظام الاشتراكى قد خلق جميع الشروط الضرورية لنمو القوى الروحية الجبارة لجميع الشعوب» .

ويزيد قائلا : «وان الكادحين وسائر العمال فى البلاد الراسمالية وكل الشعوب المكتوية بنار الاستعمار أو شبهه ترى فى مثل الاتحاد السوفياتى وبلاد المعسكر الاشتراكى الطريق الوحيد الواقعى للتحرر من الظلم الاجتماعى والوطنى» .

هاتان العبارتان تشبهان فى صيغتهما اللغوية العبارات العلمية ، فكلاهما يكتسى صيغة تقريرية وعمومية ، وكلاهما لايعبر عن قناعة أو آمال فحسب ، بل انهما توكيدان يدعيان الحقيقة ، ولا نريد أن نقول بهذا الصدد أن هاتين العبارتين ليستا كاذبتين فى مجملهما ، وانهما لاتفصحان الا قليلا عن بعض الاشياء الواقعية والرغبات الجميلة ، فذلك أمر قد يحصل حتى فى العبارات العلمية التى كثيرا ما نعتقد بادىء الامر بصحتها ثم لانلبث أن نتبين خطأها ، وانما الذى نقصد اليه هو ان العبارات العلمية نتوصل اليها بطرائق موضوعية محددة : اننا ننطلق فى العلم بدءا من حوادث التجربة ، التى يمكن ملاحظتها جماعيا ، كما ان النتائج تستخلص طبقا لقواعد المنطق والطرق العقلية مع الحذر الى اقصى حد من تدخلات الرغائب والمطامع ، ثم ان هذه النتائج تخضع للتحقق بالممارسة ، عندما تصدق توقعاتها على تجارب لاحقة ، وعندما نحصل بالسير على هديها على نتائج مرتقبة .

اما عبارات الدعاية الايديولوجية التى اتينا على امثلة منها فهى مخالفة لهذا الامر ، ليست هى تعميمات منحدرة من طريق المنطق بقدر ما هى تعبير عن عواطف ومطامع الطوائف الاجتماعية ، ولا تكتسى طابعا موضوعيا او عقليا ، بل طابعا ذاتيا ، انفعاليا ، وفى بعض الحالات فان الذى ينادى بها لايعتقد بصحتها ، وانما يريد فقط أن يبعث بها فى الآخرين نشاطا يدفع بهم الى المساهمة فى تحقيق تلك الاهداف ، وقد يعمل أن تصبح قضيته استقبالا قضية صحيحة .

ان الذى يحدث غالبا فى ادب الدعاية اننا لانقوم بخدمة او تغليط مقصود من اجل الوصول الى أهداف معينة ، بل اننا نعتقد مخلصين بضرورة القيام بعمل ما قد يفيد الانسانية ويساهم فى تقدمها ، لذلك نحاول أن نظهر الاشياء فى مظهر الحقيقة ، واذ تحدثنا بلغة علم النفس الحديث نقول : ان الامر يتعلق باضفاء صبغة عقلية على أغراض نفسية ثانوية فى اللاشعور (وهذه الاغراض لها جذور ضاربة فى الشرائط المادية لحياة الطائفة الاجتماعية التى يعنيها الامر) بل هذا بالضبط هو النمط من التفكير الذى اطلق عليه ماركس وانجلز اسم الايديولوجية .

موضوع العلم ومناهجه :

من المهم ان نلاحظ ان الطريقة التى يتم بها تحديد مفهوم العلم لا تثير من المناقشة ما يثيره تطبيق هذا المفهوم (العكس بالنسبة لسائر المفاهيم) ، ثمة عناصر يريد الماركسيون وفلاسفة من مختلف التيارات ، وعلماء اخصائيون ادخالها فى تعريف العلم ، على ان هناك اتفاقا فى الجملة يقضى بأن العلم منظومة من المعارف ذات اتصال بالواقع ، وهذه المعارف لها طابع موضوعى ، ومناهج بها نحدد الطابع العلمى لاى اثبات أو أية نظرية ، وتستند هذه المناهج الى كل من الدليل النظرى والتصديق التجريبى ، ومع هذا فثمة مصاعب تتولد عند تحديد المحتوى لمفهوم العلم ، وعندما نحاول ان نتجاوز هذا الحد الادنى .

وترجع هذه المصاعب بالدرجة الاولى الى ان العلم الحديث أخذ يعطى اهمية متزايدة لبعض النشاطات التى لايمكن اعتبارها مكسبا مباشرا حصل عن معرفة

بالواقع الموضوعى ، وانما هى تركيب لادوات مختلفة جدا من الممكن (وليس من الواجب) أن تفيد فى معرفة الواقع معرفة أكثر جدوى • الفكر النظرى الانسانى سابق على الفكر التجريبى ، فالفكر النظرى ينحت فرضيات تتخذ منطلقا لعدة بحوث بواسطتها نلتمس الوقائع التى تثبت تلك الفرضيات ، كما أن الفكر النظرى يقوم ببناء انماط ومنظومات رمزية يمكن أن توجد لها فى المستقبل تطبيقات فى المعرفة المباشرة بالواقع المادى ، ولا يقتصر الفكر على عملية التعميم وتحليل النظائر والاشباه بل يقوم بعملية تنبؤ واستباق • قديما كان (فرنسيس بيكون) يرى أن على الانسان لكى يعرف ، أن ينصت الى الطبيعة ويذعن لها ، ولكن هذا الموقف الاتكالى السلبى كان متخلفا حتى عن عصر بيكون ذاته ، فهو لم يطلع اطلاعا كافيا على علمه المعاصر ولم يحسب الحساب لمعاصره (غاليله) ، أحد الاقطاب الثوريين فى تاريخ الفكر العلمى • لقد أدخل (غاليله) الرياضيات ومناهج الفكرى التجريدى فى علم الميكانيك ، كما صاغ القوانين لظاهرة السقوط الحر ، هذه الظاهرة التى لايمكن أن نحياها فى التجربة ، بسبب مقاومة الهواء ، على الاقل فى كرتنا الارضية ، ولا يمكن أن نعانيها أو نقف عليها بطريق الاستقراء والتعميم التجريبى •

لم يكن أحد يتصور ، عند ابتكار الهندسة الاقليدية ، وجبر المنطق الذى ابتدعه (بول) أن هذين الفنين سيجدان تطبيقهما فى ميدان العلم ، لقد كان (وندلباند) يدعو هذا الجبر رياضة منطقية ، وطالما شكا (شرويدر) بأن العلم لم يبن أية أداة دقيقة لايمكن الاستفادة منها فى أى شىء ، ومع هذا فنحن نعلم أن هندسة (ريمان) أضحت نظرية للفضاء ، واساسا فى النظرية العامة لنسبية (انشتاين) ، وان الجبر الذى ابتدعه (بول) اضحى له تطبيق قيم فى ميدان الالكترونيا والتقنية الحديثة المتعلقة بالمواصلات البعيدة المدى •

من أجل هذا وجب أن نحتاط من التعريفات الضيقة جدا ، والتى تبعد عن ساحة العلم جميع هذه المكاسب الوافدة اليه من الفكر التجريدى ، ونحتاط فى نفس الوقت من التعريفات الواسعة التى تريد أن تدخل فى ساحة العلم كل نشاط رمزى يتم انجازه طبقا لبعض القواعد الصورية •

النزعة التحررية المغالية كما راينا تقودنا فى هذا المجال ، الى النسبيــة والالتباس ، على أن النقصى المتشدد القاضى بأن كل نتيجة تعكس مباشــرة الواقع المادى يسلمنا أيضا الى تصور العلم تصورا مبسطا وفقيرا ٠

يمكن أن نصوغ تعريفا اوليا للعلم على النحو التالى ٠ العلم منظومة مــن القضايا والنظريات بها نصــف ونشرح ونتملــك ، فعــلا ، ظواهر الطبيعــة الموضوعيــة ٠

يفهم من هذا ان المفاهيم ، والقضايا والنظريات التى لها اتساق موضوعى رغم كونها ، اشياء مجردة وخيالية وحدودا لتطورات واقعية ولا يمكن التقاطها من أوضاع مبسطة ومثالية ، تعتبر جزءا من العلم ما دامت قابلة للتطبيق ٠

ذلك اننا بفضلها نتمكن من شرح الظاهرة الواقعية ووصفها ، بل اننــا على هذا النحو نزيد من قدرة مراقبتنا على هذه الظاهرة ، وتعتبر امكانية التطبيق فى العلوم التجريبية المعيار ، الذى يضع الفواصل بين النشاطات التى تعتمــد الرموز وتنتمى الى العلم ، وبين النشاطات الاخرى التى تكتسى فى واقع الامر طابعا تعسفيا حيث تبدو من هذه الوجهة وكانها لعب ٠

على ان هذا التعريف وان كان واضحا بالحس السليم ، فهو لم يمتلك بعد الدقة اللازمة ، وقد وجب عندئذ أن نبحث بدقة بعض الفاظه كيما يصبح تعريف العلم قادرا بوضوح على ايحاء المعايير التى تميز العلم مما ليس بعلم ٠

يمكن ان نطرح المسالة النقدية اذن على النحو التالى : ماذا نعنى بقولنــا ان نظرية من النظريات تقوم على «الوصف» ، أى على شــرح ظواهــر الواقــع الموضوعى ، هل بلغ هذا المفهوم درجة من الوضوح يمكــن أن نجزم معهــا بأن قضية ما تؤلف جزءا من العلم أم لا ؟ ان تعريفنا لايمنحنا هذا المعيار ، ولناخذ مذاهب ميتافزيائية ، كالصورة التى يعطيها هيدجــر عن العالم ، او التأويــل الايديولوجى للواقع كما جاء فى مقالات المجلة البلغارية(FILZOFISCA MISL او الرؤية المهولة للمستقبل عند هكسلى ، فى Le Brave New World او كتابات اوريل عن سنة ١٨٩٤ ، انها جميعا تزعم أنها تصف الواقع وتشرحه عن طريق مباشر أو غير مباشر ، وبمختلف الوسائل ، وتدعى بانها تساهم فى

تحويله عمليا ، ونحن لانمتلك حتى الان معيارا دقيقا فى صيغته نستدل به عما هو العلم ، ونفصله به عن بقية مبتكرات الفكر ٠

مرد ذلك اننا تكلمنا عن غاية العلم فى تعريفنا الاولى به ، دون اعتبار للنوعية التى يتسم بها منهاجه ، فبالمناهج نستطيع أن نميز العلم تمييزا واضحا عن جميع فروع النشاط الانسانى ٠

ان الذى يطبع المنهاج العلمى بطابع خاص ، ان كل معرفة علمية تعتمد فى أساسها على حوادث يمكن لجميع الناس أن يشتركوا فى ملاحظتها ويتأكدوا من صحتها وصدقها ، وهذا يعنى أنه تحت الشروط الثابتة يمكن لاشخاص مختلفين فى ظروف مختلفة ان يلاحظوا بتجاربهم الشخصية ما ندعوه حوادث علمية ، واذن فالظاهرة الفزيائية التى يشترك الناس فى ملاحظتها ويمكن تصديقها والتأكد منها هى الظاهرة التى تكون تجربة تمحيصها والتحقق منها موصوفة وصفا يتيح لكل امرىء أن ينجزها بنجاح ما دام يتوفر على الخبرة المهنية والتقنية الضرورية ٠

هذا من جهة أولى ، اما من جهة ثانية فان نتائج المعرفة العلمية يجري التعبير عنها فى لغة بينة متقنة ، يأخذ فيها معنى كل لفظة تحديده الدقيق وصياغته الكاملة (اللهم الا اذا استثنينا بعض الكلمات الضرورية تلك التى تستعمل فى تحديد غيرها من الكلمات) ، ولابد للحصول على التواصل المشترك المطلوب أن يكون الرمز فى لغة الاختصاص والتقنية والعلم مصوغا فى حلة بيانية تعتمد الفاظا يمكن للجميع أن يشترك فى فهمها ولو بلغة عادية ٠

وغير خاف عنا ان بعض العلماء يهملون فى أعمالهم هذا المطلب ، مطلب (التوصل) ونحتاج الى اعوان لفهم دلالات ألفاظهم والى من يشاطرونهم العمل فى نفس الميدان ، بل ان عملية الفهم تحتاج فى الغالب الى الحدس ولا يفيد معها شرح عقلى ، بيد ان الصيغة العلمية لاعمال هؤلاء العلماء ما تزال موضوع نقاش ٠

الخاصة الثالثة للمنهج العلمى هى المنطق الصارم الذى يطبع سائر الاحكام ، والتماسك الذى يربط مختلف النتائج ، كما أن استنتاج النتائج

الجديدة بدء من النتائج المكتسبة يتم وفقا لقواعد المنطق ، وبهذا الصدد نقول ان المعرفة العلمية يقع اثباتها بطرق نظرية ، وينبغى ألا نفهم المنطق على انه فقط جملة من النظريات تتعلق بقواعد الفكر مما نلفيه فى كتب الدراسة ، فثمة منطق معقد وبسيط للفكر نستعمله جميعا وبدون انقطاع فى حياتنا اليومية ، ولا يوجد منه فى الكتب سوى البعض • ان الاحكام العلمية لايمكن استخلاصها تحت تاثير الاهواء والغرائز والرغائب ، انها تستخلص بطرق معقولة وطبقا لقواعد قابلة للتطبيق على نطاق كلي ، ومن الضرورى أيضا أن يكون التوافق حاصلا بين النتائج العامية (عدم التناقض) •

الميزة الرابعة للمنهج العلمى ، ولعلها اهم ميزة هى ان النتائج العلمية تستمد قيمتها بالدرجة الاولى من صدق تنبؤاتها على تجارب لاحقة فى جميع أطوار تطبيقاتها الفعلية ، ومع ان العلم يستجيب لرغبة فكرية طبيعية فى الانسان ، هى حب الاستطلاع ، فان غايته الاولى اكتساب أكبر قدر من الفعالية الممكنة لخير العمل الانسانى ، وتحقيق اكبر قدر من الرقابة على القوى الاساسية للتطور الطبيعي والاجتماعى ، لهذا كانت الغاية النهائية للبحوث العلمية هى المعارف ، المعارف التى تمكن من استبصار حوادث مقبلة وتوقعها ، ومعرفة بعض العلائق الثابتة العامة والضرورية التى تربط الظواهر (أى معرفة القانون) •

ويقتضى هذا الامر اولا ، ان صياغة قانون طبيعى ينبغى ان تجعلنا قادرين على استخلاص علاقة شخصية تصف لنا التجارب التى يمكن الحصول عليها فى فترة لاحقة ضمن بعض الشروط النوعية •

ثانيا : تحقيق هذه الشروط فى فترة معطاة ينبغى أن يجعلنا قادرين على ملاحظة الحوادث المتوقعة ، وعندما لايمكن شرح هذه الملاحظة باية فرضية اخرى نقول عندئذ ان القانون قد تحقق وصدق •

والان فقط نستطيع أن ندرك بوضوح طبيعة النظريات التجريدية الرياضية والمنطقية ، ودورها كاداة فى تطور المعرفة العلمية ، انها لا تعكس الواقع مباشرة ، ولذلك فليس بالامكان أن تصبح خاضعة للتحقيق او التصديق

بنفس الطرق التى اشرنا اليها فى موضوع قضايا ونظريات العلوم التجريبية ، ولابد لكى تتسم تلك النظريات بالسمة العلمية ان تصبح قابلة للتطبيق ، اى قابلة لان نستخلص منها قضايا يجرى عليها مبدأ التحقق والتصديق • ثمة طرق متعددة للتطبيق ، (الصيغة الرياضية المجردة يمكن ان نخضع للتطبيق عندما نضع فيها موضع الرموز كمية مشخصة حصلنا عليها بالقياس • ان قاعدة ما يمكن ان نخضع للتطبيق عندما ننجز العمليات النظرية بمقتضاها وطبقا لها كما يحدث فى عملية (التعريف ، التصنيف ، الاحكام •• الخ) ، ورغم ان العلم يتجه فى نهاية التحليل نحو التجربة فمن الضرورى ان نميز المعارف المشخصة التى يمكن التحقق منها فى ميدان التجربة من المعارف المجردة التى يمكن تطبيقها فى مختلف الاطوار التى نجتازها فى سبيل الحصول على المعارف المشخصة ، واذا شئنا ان نعمم ، نقول : ثمة كلمة تجمع المعرفة العلمية بالتجربة العلمية الا وهى التطبيق العلمى •

نستطيع الان ان نعطى تعريفا ادق لمفهوم العلم :

(العلم منظومة من القضايا والنظريات قابلة للتواصل جماعيا ، متماسكا نظريا ، قابلة للتطبيق عمليا ، تصف وتشرح ظواهر الواقع الموضوعى) •

بهذا التعريف يمكننا ان نميز بدقة العلم من الميتافيزيقا، النظرية ، والدعاية الايديولوجية •

ان النظرية الميتافيزيائية لاتتمتع بالتواصل الجماعى الا فى حالات استثنائية ، فالفلاسفة الميتافيزيائيون لا يفهمهم الا أتباعهم او على الاقل أولائك الذين يؤكدون فهمهم ويزعمونه ، وينسحب هذا المعنى الى حد كبير على لغة الدعاية الايديولوجية ، فالكلمات تاخذ معان مختلفة تبعا للاحزاب والتيارات الايديولوجية ويكفى ان نفكر فى الالتباس المهول الذى يكتنف دلالات بعض الكلمات مثل (العالم الحر ، الحرية ، العدالة ، الديموقراطية ، الدولية ، الاشتراكية •• الخ) •

ان صراع المصالح بين الحركات السياسية المتنابذة يتندى فى صورة اختيار الكلمات والتفسير الذى يلبس لبعض الالفاظ الهامة . ما من أحد خارج المعسكر السوفياتى مثلا يمكن ان يتصور كلمة (الدولية) فقد تتحدد وتعرف فى اللحظة التى تنتصر فيها الاشتراكية فى عدة أقطار . لقد حددها ستالين كالتالى (الدولية هى الاستعداد بدون تردد أو شرط لحماية اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية) .

والنظريات الميتافيزيائية قد تكون متماسكة أحيانا (مثل أخلاق سبينوزا) الا انها غالبا ما تكون مليئة بالتضارب والتفكك ، ويتجلى هذا بصفة أوضح فى الدعاية الايديولوجية التى تروج لها القوى الرجعية فى المجتمع .

كما ان حظ الميتافيزياء من امكانية التطبيق معدوم وهذا ما يميزها بوضوح أكثر من العلم والفلسفة العلمية ، ليست هناك حوادث تجريبية يمكن أن تثبت أو تنفى جميع ما قاله أفلاطون عن المثل ، وأرسطو عن الكمالات ، وطوما الاكوينى عن الثالوث الاقدس ، وديكارت عن الجوهر المفكر ، وسبينوزا عن الهه الممثل فى الطبيعة الطابعة ، وليبنز عن الروح المطلق ، وشلر عن القيمة العليا للطهارة ، ووايتهيد عن الاشياء الخالدة .

هذه النظريات كلها تزعم بأنها تعطى فكرة عن العالم وتشرح بعض الاشياء، وتتجه صوب ملكاتنا الفكرية لتحدثنا بأشياء ، بيد انه ليس فى مقدورنا أن نتعرف على هذه الاشياء ونتأكد منها عن طريق التجربة بصورة مباشرة او غير مباشرة .

ان وظيفة الاداة التى يتمتع بها المنطق والرياضيات معدومة فى النظريات والقضايا الميتافيزيائية ولا يمكن لنا أن نطبق عليها المعايير الاساسية للحقيقة الموضوعية ، ولذلك فهى بعيدة عن حدود العلم .

بيد أن وضعية النظريات الايديولوجية تختلف عما سبق ، يمكن لهذه النظريات أن تصبح قابلة للتطبيق احيانا ، لكن بمعنى نوعى ، نوعى جدا . فاعضاء طبقة ما أو حركة أو حزب هم وحدهم الذين يقومون بتطبيقها . ويتعلق الامر بالنشاط المبذول ، فهو الذى يستطيع متى ارتفع ان يحقق التنبؤات ، اذ

يمكن للتنبؤ ان يتحقق فقط بالاعتماد على المحاكمة الهامدة والنظر الموضوعي ، ومن هنا تنجلي ـ كعامل خفي ، القدرة الدافعة التي تمنحها عملية التنبؤ بذاتها للجماهير المنضوية تحت لواء حركة سياسية • ومن هنا ، نرى أحيانا أن العالم حينما يحكم من الوجهة الموضوعية انه لايوجد سوى احتمال ضعيف بنجاح تقدير لوضعية سياسية ، فان المستقبل يكون الى جانب رجل السياسة الذي كانت تقديراته ذاتها أحد أسباب النجاح •

في سنة ١٩١٧ لم يعلن احد الثورة البولشفية في روسيا لو لم يثبت لينين ويؤكد أن هذه الثورة ستنجح • وهكذا يحدث في الدنيا أحيانا (ما لايمكن حدوثه بناء على الاعتبارات العلمية الدقيقة) •

يمكن للوعي السياسي اذن بهذه الحيوية والارادة اذا ما استند على تقدير صحيح أن يكون نافذا وصائبا أكثر من الوعي العلمي ، لانه ينجح في ايقاظ روح التضحية لدى الجماهير •

ومن المؤسف وهذا ما يحدث غالبا أن هذه الارادة والحيوية عندما لاتستندان على أساس مادي وعلمي تقودان الى افلاسات راعبة • وتبدو الهزيمة التي لحقت بالشعب الالماني في الحرب الاخيرة كمثال على ذلك • علـى أننا نستطيع ذكر ظواهر اخرى من هذا القبيل مثل مشروع الكومونات ثورة ١٥٠٥ في روسيا ، ثورة المجر وبافاريا سنة ١٩١٧ ، انشاء كولخوزات ومحطات للالات والجرارات في بعض بلاد المعكسر الاشتراكي •

ان تحميس الجماهير بأساليب الدعاية السياسية لايمكن ان يحقق الاهداف الاجتماعية ، التي قد يبدو امر تحقيقها بعيد الاحتمال من الوجهة العلمية الدقيقة (كما هو الشان بالنسبة للاشتراكية في البلاد المتخلفة) الا اذا كانت بعض الشروط المادية متوفرة وملائمة •

مفهــوم الايديولوجيــة

مفهوم الايديولوجيا قبل ماركس وانجلز :

فى معهد فرنسا سنة ١٧٩٦ ابتدع الفيلسوف دوستــوت دو تراســى Destutt de Tracy كلمة الايديولوجيا ، وكان يرمى من ورائها ، سيما فى عصر شهد تغيرات فى أسماء جميع المؤسسات ، اعطاء اسم جديد لتلــك الفلسفة التى هيأت للثورة ، كما كان لابد من تبديل كلمة ميتافيزياء التى فقدت رونقها بكلمة ايديولوجيا التى أضحت تدل على علم الافكار ، أى العلم الــذى يبحث فى صفات الافكار وقوانينها وسماتها وخاصة اصولها . وقــد حــاول دوستوت فى كتابه (مشروع لعناصر الايديولوجيا) أن يوضح أن الافكار تتكون من احساسات ، وبذلك رسم الطريق لطائفة من الفلاسفة اعتبروا أنفسهــم ، واعتبرهم الناس ايديولوجيين أمثال : كوندورسى Condorcet فــولنــى Volny غــارا Garat كابانيــس Cabanis شينــى Chenier سان سيمون Simon كونــت Comte ميريمــى Mérimée ستانــدال Stendhal سان بوف Saint-Beuve

ويبدو ان الكلمة سرعان ما اتخذت معنى مبتــذلا ، عندما بدا نابليــون يضجر من معارضة الجمهوريين وآراء المفكرين الذين اشرنا اليهــم ويدعوهــم باستخفاف (ايديولوجيين) ، ملمحا بذلك الى اشتغالهم بقضايا مجردة لا تمت

الى الواقع ولا الى السياسة العملية بصلة . وقد التقط شاتوبريان هذا المعنى فى الحين ليلبسه لكلمة (ايديولوجيا) ، ثم اخذت الكلمة فيما بعد تستعمل للدلالة على نوع من التفكير يهدف عمدا الى تصوير الواقع تصويرا سطحيا بغية تضليل الآخرين . وفى ميدان العلم كانت دراسة الايديولوجيا ، والمعنى الايديولوجى للفكر تعنى دراسة أسباب الخطأ النفسية والاجتماعية وما اليهما.

وكان الوعى فى بداية هذا العصر ـ العصر التاسع عشر ـ وحتى الوعى المزيف بالواقع ، يفهم بطريقة مجردة غير تاريخية . فعندما نوازن بين ميتافيزيائى القرن السابع عشر وفلاسفة عصر الانوار نرى أن الاولين اعتبروا الوعى احد تجليات العقل الطبيعى وانه واحد لدى جميع الناس ، بينما خطا الآخرون خطوة الى الامام على الاقل حينما اعتبروه نتاجا اجتماعيا ، وحصيلة لفعل الوسط الاجتماعى ، على انهم كانوا يفسرون تطور المجتمع وتطور الوسط الذى ينشأ فيه الفرد بتطور الافكار ، اى اعتبروا فى نهاية التحليل الوعى المجرد وغير التاريخى هو المحرك لسير التاريخ .

واذا أخذنا بوجهة نظر الفلاسفة العقلانيين اعتبرنا الافكار السائدة فى مجتمع ما : ليست خاطئة لان مبتدعيها (بحكم وضعيتها النوعية فى المجتمع) لم يكن فى مقدورهم التعرف على الحقيقة التى يتم ادراكها دوما ـ وحسب رأيهم ـ بمجرد الحس السليم ، بل لان السبب الذى من اجله تروج افكار مزيفة هو الرغبة فى ارضاء مطامع أنانية . واذن فالتفكير الايديولوجى ، خدعة مقصودة .

وقد كان العهد الرومانسى ، وما حفل به من حركات تحررية ، اول العهود التى شخصت مفهوم الوعى الانسانى فى معنى ما من وعى انسانى كلى الى وعى يتمثل فى روح الشعب .

مفهوم الايديولوجيا عند ماركس وانجلز :

خطا ماركس وانجلز خطوة جديدة فى سبيل تشخيص مفهـوم الوعـى الانسانى ، فهو فى مفهومهما ، وبالدرجة الاولى ، وعى طبقة محددة تاريخيـا ، والافكار السائدة فى عهد من العهود فى نظرهما (ليست سوى تعبير فكرى عن علائق تجعل من طبقة ما طبقة سائدة (١) ٠ و (ان الافـراد الذين يصنعـون علائقهم الاجتماعية طبقا لعلائقهم المادية فى الانتاج ، يصنعون فى الوقت ذاته وطبقا لعلائقهم الاجتماعية المبادىء والافكار والمقولات) (٢) ٠

أول خاصة أساسية تتميز بها الافكار التى تسود فى مجتمع طبقى انها ، بحكم الشرائط المادية والروحية التى تكتنف حياة مبتدعيهـا ، ترسم صـورة ناقصة ومشوهة للعلائق الواقعية السائدة فى المجتمع ٠

ونلقى فى كتاب الايديولوجيا الالمانية الصيغ الكلاسيكية التالية التـى يوضح فيها ماركس العنصر الاساسـى للدلالـة التـى كان يلبسهـا لكلمـة ايديولوجيا ٠

(اذا كان الناس ـ فى علائقهم ـ يصـورون تصويـرا ناقصا فـى كـل ايديولوجيا ، وكانما احتوتهم غرفة مظلمة ، فتلك ظاهـرة تتأتى من تكويـن

---

١ ـ ماركس وانجلز : (الايديولوجيا الالمانية) ٠
٢ ـ ماركس : (بؤس الفلسفة) ٠

حياتهم التاريخى ، كما ان انقلاب الصور على شبكية العين يتاتى مباشرة من تكوينها الفيزيائى) (١) • (اذا كان التعبير الواعى عن العلائق الواقعية للافراد تعبيرا خادعا ، واذا كان هؤلاء الافراد يقلبون الواقع راسا على عقب فى تصوراتهم ، فما ذلك الا نتيجة لفعاليتهم المادية المحدودة ولما يترتب عنها من علائق اجتماعية) (٢) •

اما الخاصية الثانية للفكر الايديولوجى فهى عدم الوعى الواضح بالدوافع المادية الكامنة وراء الافكار التى يطرحها ، ثم عدم الوعى بطبيعة الافكار من حيث هى افكار تحددها شروط متصلة بالوضعية المادية السائدة فى مجتمع الانسان الذى يفكر ، ان الايديولوجيين يخلقون ضلالات نوعية فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويضفون عليها طابع المثالية والخلود ، ثم يعتنقون هذه الضلالات عن صدق وبنية طيبة •

ومن هنا كان مفهوم ماركس وانجلز للضلالات الايديولوجية يختلف اختلافا جذريا عن النظرية الشائعة ، نظرية المصالح التى ما يزال يتبناها حتى اليوم عدد من الماركسيين ، ومن بينهم بعض الماركسيين اليوغوسلافيين ، وقوامها ان طبقة المستغلين تلجا الى الكذب عمدا ، وتعمد الى تضليل الجماهير كيما يتسنى لها الاحتفاظ بمصالحها الانانية •• واننا لنجد شرحا واضحا لهذه الخاصية الايديولوجية عند مؤسسى الماركسية ، ماركس وانجلز : (ان الايديولوجيا تكون ، او بناء يحققه الفكر بوعى ، لكن بوعى مغلوط ، وان القوة المحركة التى توجه المفكر تظل ابدا مجهولة والا لما كان ذلك البناء بناء ايديولوجيا بالمرة ، وعلى هذا النحو ترتسم فى خيال المفكر قوى محركة كاذبة ، وما دام بناء الايديولوجيا وتكونها بناء ذهنيا ، فان المفكر يستخلص ، سواء من تفكيره هو ، أو من تفكير الذين سبقوه ، صورة الفكر المحض ومضمونه) (٣)•

---

١ ــ ماركس وانجلز : مؤلفات الشباب •

٢ ــ ماركس : الايديولوجيا الالمانية •

٣ ــ انجلز : رسالة الى فرانتز مهرانتغ ١٤ يوليوز ١٩٦٣ : مؤلفات ماركس وانجلز •

ان كل ايديولوجيا بمجرد نشوئها تنمو وتتطور على اساس نظرية التطور القائم ، وتفتني به ، والا لما كانت ايديولوجيا ، اى لما كانت استمرارا لافكار تتطور بطريقة مستقلة ، وتخضع لقوانينها الخاصة باعتبارها ذوات تتمتع بحياة مستقلة . ثم ان شرائط الوجود المادى للبشر الذين يجرى فى ادمغتهم هذا التطور الايديولوجى من شانها أن تحدد فى نهاية التحليل ، مجرى هذا التطور الذى يظل عند البشر بالضرورة تطورا لا شعوريا والا لما كان تطورا ايديولوجيا بالمرة (١) .

جذور الايديولوجيا بالنسبة لماركس وانجلز ـ تكمن فى وجود الطبقات، وفى تقسيم العمل وفى «استلاب» الوعى الانسانى نتيجة وجود المجتمع الطبقى.

ان انقسام المجتمع الى طبقات يفتت شخص الانسان ، وان الانسان الذى يستغل غيره يصبح عاجزا عن رؤية المجتمع كلا ، وعاجزا عن اعتبار مصالح المجتمع الكلية من مصلحته الخاصة ، وصفوة القول ، ان وجوده ينتهى ككائن اجتماعى يتمتع بحس عام . ان الذى يعيش فى جو التفكك والانفصام محصورا ضمن وجوده الخاص وممارسته الاجتماعية شخص يعيش بوعى مفكك ويحيا حبيس وعيه الطبقى .

ومن نتائج تقسيم العمل ان بعض المفكرين من الطبقة الحاكمة (ينصبون انفسهم مفكرين لهذه الطبقة) : «ايديولوجيين» ، خلق الضلالات لهذه الطبقة هو المنبع الذى يستقون منه (٢) .

«ان تقسيم العمل يصبح حقيقة واقعة عندما ينقسم العمل قسمين : مادى وذهنى ، وبدءا من هذه اللحظة قد يحدث ان يحسب الوعى نفسه شيئا آخر غير ان يكون وعيا بالممارسة الاجتماعية ، ويخيل اليه انه يمثل شيئا فى الوقت الذى لايمثل فيه شيئا من الواقع ، وبدءا من هذه اللحظة ينطلق الوعى

---

١ ـ انجلز : لودفيغ فونتيرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .
٢ ـ الايديولوجية الالمانية .

فى عملية التخلص من العالم والاندفاع نحو خلق النظرية المحض ، نحو خلق اللاهوت ، والفلسفة والاخلاق» (١) .

ومن عواقب تقسيم العمل الى عمل يدوى ، وآخر ذهنى أن الانسان أضحى عاجزا عن ادراك العلاقة بين منتوجات ذكائه وبين الممارسة الاجتماعية للطبقة التى ينتمى اليها ، بل أضحى عاجزا حتى عن رؤية هذه الممارسة ، والعلائق الاجتماعية الواقعية فى ضيائها الحقيقى ، ذلك لان جميع منتوجات العمل الاجتماعى تكتسى فى ظل مجتمع طبقى صبغة قوى أجنبية غريبة عن الانسان ، تتحكم فيه ، وهو لايستطيع بالتالى ، السيطرة عليها ، ولا تصورها كأثر من ابداعه .

«ويتجلى استلاب الانسان فى أن وسائل وجوده تتراءى لى وسائل لانسان آخر ، وان موضوع رغبتى يتراءى لى شيئا بعيد المنال ، لانه ملك لغيرى ، ولان أى شىء يصبح شيئا للغير ولا شيئا ، ولان جميع الامور تتحكم فيها قوى أجنبية غريبة» (٢) .

والمثال النموذجى لمنتوجات العمل الانسانى التى يتجلى فيها الاستلاب هو المال والبضاعة ، ان العلائق الاجتماعية التى تتوارى خلف القيمة التجارية تظل مجهولة ، وغير مفهومة . ولما كان الانسان لايستطيع مراقبة تلك القيمة ذاته يتصور العلائق الواقعية بين الناس فى سياق تطور الانتاج علائق بين الاشياء ، وعلى هذا النحو يغدو المال فى المجتمع الرأسمالى وثنا معبودا ، سيدا قادرا على كل شىء ، وما على الانسان سوى الخضوع له . كما أن جمع المال يمسى غاية تضحى من أجلها جميع حاجات الانسان الاساسية .

فالايديولوجيا ليست سوى استلاب الانسان وضياعه على صعيد وعيه . اذ منتجات الفكر البشرى تصبح هى القوى التى تتحكم فى الفكر البشرى .

---

١ ــ مؤلفات الشباب .
٢ ــ مؤلفات ماركس وانجلز .

ولن نجد مثالا ـ حتى فى علاقة الانسان الدينية بربه ـ اقوى من هذه الصيغة الايديولوجية لاستلاب الانسان وتبعيته لمخلوق خاص ابتدعه فكره .
على أننا نجد اوثانا اخرى مماثلة قد تفيد كقاعدة لدعاية سياسية

جماهيرية ، منها «الوطن» الذى ما هو فى الواقع بالوطن الحقيقى للعمال ، والدولة «التى ليست سوى جهاز فى يد اقلية قليلة من المستغلين ، والحزب الذى يداب على خيانة مبادئه الاولى ، ويغدو غاية فى ذاته ، دون ان يرى فى ذلك اتباعه المتعصبون أية غضاضة .

وخلال عشرات السنين التى نقضت بعدما أشاع ماركس وانجلز هذا المفهوم للايديولوجيا باعتبارها وعيا ناقصا ومشوها للطبقة حدثت تغيرات هامة فى استعمال هذه الكلمة ، فقد أخذ ماركس وانجلز ذاتهما اولا ، ومن بعدهما طائفة كبرى من الماركسيين يستعملون كلمة ايديولوجيا فى معنى واسع جدا ، معنى يتناول مجموع الصيغ المتصلة بالبنية الفوقية لعصر من العصور . ونطالعنا الصيغة التالية فى النص الكلاسيكى لـ «مقدمة للمساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى» :

«بتغيير الاساس الاقتصادى ، فان البنية الفوقية برمتها تنقلب بسرعة ، على أن نميز فى هذا الصدد بين الانقلاب المادى الذى يتناول شرائط الانتاج الاقتصادية ، أى الذى نستطيع ملاحظته ووضع اليد عليه بطريقة علمية دقيقة ، وبين الصيغ القانونية والسياسية والدينية والفلسفية ، أى باختصار جميع الصيغ الايديولوجية التى من خلالها يعى الناس هذا الصراع ويصلون به الى نهايته» (١) .

لينين والايديولوجيا :

كان لينين يتحاشى استعمال كلمة ايديولوجيا ، ففى مؤلفاته التى بلغت ١٥٠٠٠ صفحة ، استعمل هذه الكلمة قرابة عشر مرات فقط . فقد كان يتحدث عن الايديولوجيا البورجوازية مبينا أن الديموقراطية الاجتماعية تقضى بمقاومة تاثيرها ، ومما جاء فى مقال له عن «الاشتراكية والحرب» : «ان

البورجوازية تخفي اهدافها الاستغلالية تحت شعار الايديولوجيا الوطنية» ويتميز لينين عن ماركس بهذا الفارق وهو أن لينين يقول : ان الايديولوجية الطبقية الاستغلالية قد تكون خدعة مقصودة .

على ان لينين استعمل كلمة الايديولوجيا ، مرة ، في معنى نظرية او مذهب في كتابه (المادية والنزعة التجريبية الانتقادية) اذ يقول : ان كل ايديولوجيا تخضع لشروط من الوجهة التاريخية ، بيد أن كل ايديولوجية علمية (خلافا للايديولوجيا الدينية) تقابل في جميع الاقوال ، الحقيقة الموضوعية والطبيعة المطلقة» .

ويتطرق لينين ، وللمرة الاولى ، في مقالته (ما العمل) للايديولوجيا الاشتراكية ، فيتناول النظرية القائلة بأن الحركة العمالية لاتستطيع وحدها اقامة ايديولوجيتها بصورة تلقائية : اذ مثل الايديولوجية تتلقاها الحركة العمالية من الخارج ، من صفوف الطبقة المثقفة التقدمية ، ولينين يعتمد في هذا المضمار على كوتسكي كما يعتمد على مبدأ من برنامج هانفيلد في الديموقراطية الاجتماعية النمساوية ، المبدأ الذي يرى بأن مهمة الديموقراطية الاجتماعية تكمن في خلق وعي لدى الطبقة الكادحة ، وعي بوضعيتها ومهماتها، وان كل الحاح على عفوية الحركة العمالية «وكل تقليل من أهمية الايديولوجية الاشتراكية يؤدي الى تقوية الايديولوجية البورجوازية» «ان تطور الحركة العمالية تطورا عفوياً يؤدي الى تبعيتها لايديولوجية بورجوازية» .

الماركسيون الذين يلحون اليوم على طابع الماركسية الايديولوجي ، ولو على حساب طابعها العلمي ، يعتمدون عادة على هذه النصوص من مؤلفات لينين، ومن واجبنا في هذا الصدد ألا نتغاضى عن حادثين هامين : أولهما أن لينين اخذ يتحدث خاصة وفي جميع مؤلفاته اللاحقة عن نظرية الحركة العمالية ، ولم يتحدث عن ايديولوجيتها ، وثانيهما ، انه لم يعد يساورنا شك في أن لينين اعتبر الايديولوجية الاشتراكية نتيجة بحث علمي .

وثمة كلمات لكوتسي ، نالت تقدير لينين وعدها صحيحة ، وأوردها بصورة عابرة في مقالته ، (ما العمل ؟) : «لايمكن أن ينبثق الوعي الاشتراكي

المعاصر الا من قاعدة تعتمد على معرفة علمية عميقة ، فالواقع يؤكد ان العلم الاقتصادى شرط للانتاج الاشتراكى كشرط التقنية • والطبقة الكادحة ، رغم صبواتها ليس فى مقدورها ان تخلق العلم والتقنية ، بل ان التقنية والعلم يتولدان معا من التطور الاجتماعى الراهن ، وليست الطبقة الكادحة هى التى تقوم مقام العلم ، بل انها الطبقة البورجوازية المثقفة • ان الاشتراكية الراهنة قد تولدت فى أذهان طائفة من هذه الطبقة ، وهى التى عملت على اشاعتها فى اوساط الكادحين الذين امتازوا بتطور فكرى ، وهؤلاء عملوا بدورهم ، على ادخالها فى ميدان الصراع الذى تخوضه الطبقة الكادحة حيث تكون الشروط ملائمة ، وعلى هذا النحو يتبين ان الوعى الاشتراكى يتسلل ويدخل الى الصراع الذى تقوم به الطبقة الكادحة من الخارج ، وليس أبدا وليد حركة عفوية أو تلقائية» •

وقد كتب لينين بعد ذلك رسالة الى اتحادية الشمال ، جاء فيها : «ان الاشتراكية باعتبارها ايديولوجيا للصراع الطبقى الذى يخوضه الكادحون تخضع للشروط العامة التى بمقتضاها تنشأ الايديولوجيا وتنمو وتتوطد ، وبمعنى آخر ، فان الاشتراكية تعتمد على زاد المعرفة الانسانية كله ، وتتطلب مستوى عال من العلم والتطبيق العلمى •• الخ • ففى صلب الصراع الطبقى الذى يخوضه الكادحون ويتطور تطورا عفويا كقوة أساسية فوق قاعدة العلائق الراسمالية، فى صلب هذا الصراع يعمد الايديولوجيون الى غرس الاشتراكية» •

ونستطيع اخيرا ، أن نقول ان لينين حين كان يتحدث عن الايدبولوجيا الاشتراكية ، كان يلبسها معنى «نظرية لاشتراكية علمية» ، نظرية توجه الممارسة الثورية للطبقة الكادحة على أساس من المعرفة العلمية الموضوعية •

الالتباس الراهن :

تصدى عدد من العلماء البورجوازيين لبحث ظاهرة الايديولوجيا سواء ، فى ميدان الفلسفة أو علم الاجتماع ، وقد تبنى البعض منهم ، فى حدود متفاوتة، نتائج النقد الماركسى للايديولوجيا ، وكارل مانهايم Karl Mannheim

يشير فى كتابه (الايديولوجيا والطوباوية) الى ضرورة التمييز بين المفهـوم الجزئى والكلى للايديولوجيا، المفهوم الاول يوافق، فى نظره، سلسلة التشويه التى لحقت الحالة الاجتماعية الواقعية للفكر ، فى حين يوافق المفهوم الثانــى طراز الفكر ، وطراز الحضارة فى عصر من العصور .

وقد بنــى عالم الاجتماع الالمانــى تيـودور جيجير Teodor Geiger مفهوما للايديولوجيا يقوم على التمييز بين وعى تقريرى ، ووعى تقييمــى ، اى بين نوع من القضايا النظرية التى تعتمد الحوادث ، ونوع آخر يعتمد التقييم. القضايا الايديولوجيا فى رأيه ، هى جميع القضايـا التى تبـدو ـ من خـلال صيغتها اللغوية والمعنى الذى تفصح عنه هذه الصيغة ـ تعبيرات نظرية للواقع، بيد انها تعبيرات قد تداخلها عناصر غير نظرية لاتنتمى من الوجهة الموضوعية الى الواقع الملموس .

وقد دافع عالم الاجتماع فيلفريد باريتو Vilfredo Pareto عـن رأى مماثل لما قدمناه وان كانت لغته تختلف .

وثمة شروح اخرى متعددة لكلمة ايديولوجيا عند بعض المؤلفين لاتربطها أية آصرة بما اسلفناه ، ففى القاموس الفلسفى لداغوبرت Dagobert Runes مقال عن الايديولوجيا ، بقلم جورج بوس George Boas جاء فيه : «ان كلمة ايديولوجية فى هذا العصر تعنى فىاللغة الانكليزية وعند طائفة منالاقتصاديين الحتميين ، الافكار اللامجدية ، باعتبارها أفكارا تعارض الاتجاه السببى المجدى. كما تدل هذه الكلمة على اية منظومة من الافكار العامة ، وقد تفيد معنى برنامج فلسفى» .

لكن كيف يجرى استعمال هذه الكلمة عند الماركسيين ؟

ان البعض يحتفظ بالدلالة التى اشار اليها ماركس ، وبالدلالة الاوسع باعتبارها بنية فوقية ايديولوجية : فالمفكر الفرنسى كورنى يرى أن لهذه الكلمة معنيين : المعنى الاول انها تعبير فكرى عن الواقع الموسوعى الذى يختزنه الوعى الاجتماعى ، أما المعنى الثانى فهو ما اشار اليه ماركس فى كتاب الايديولوجية الالمانية .

ويرى آخرون أن الايديولوجيا بنية فوقيــة بالدرجــة الاولى وانعكــاس للوجود الاجتماعي المادى ، وهو نفس الرأى الذى يتمسك به عندنا (١) بوغدان شيشيتش ففى التقرير الذى تقدم به امام الجمعية الصربيــة للفلسفــة فــي اجتماعها السنوى لعام ١٩٥٤ بعنوان : «بعض مسائل الايديولوجيا» ، ميــز بين ايديولوجيا الطبقة الاستغلالية والايديولوجيا الاشتراكية ، واشار الى أن الايديولوجيا الاشتراكية تتسم باعتمادها على العلم ، ونزوعها الى حذف العلائق الطبقية وتلبسها بطابع ثورى انسانى ٠

وثمة طائفة اخرى ما تزال تتمسك بالمفهوم الاولى لماركس ، من بينهــم ميــلان كانكــرا Milan Kangarça وميلادين جيوفوتيتش فى يوغوسلافيا. فقد تصديا مؤخرا بالدرس لهذا المفهوم ، وكان جيفوتيتش دقيقا فى نظريتــه ، اذ حاول أن يتفهم ظاهرة الايديولوجيا فى كل تعقيداتها وتشعباتها ، وأدلــى بالتعريف التالى : «ان صيغة الوعى المقوم تنشأ من الوضعيــة الجزئية التــى يعيشها الانسان فى طبقته وتحاول هذه الصيغة ان تبرر دوما تلك الوضعيــة وأن تفرضها صيغة وحيدة للوجود الانسانى» ، ويضيف : «بأن جوهر الظاهــرة الايديولوجية يكمن فى النزاع القائم بين الوعى العقلى والوعى المقــوم ٠ ومــا يحدث فى هذا النزاع من تنازلات متبادلة» ٠

أما كيف يمكن التوفيق بين هذه القضايــا فى مفهوم متماســك فتلــك امكانية ما تزال ـ لسوء الحظ ـ بعيدة المنال ٠

ها هو الدكتور ميشيل بوبوفيتش يتمسك هو الاخر بالمفهوم الماركسى ويؤكد بأن «الماركسية لم تكن فى واقع الامر ايديولوجيا» ٠ ولكن لايعنى هــذا أن نقطع العلاقة فى كل حال مشخصة بأى عنصر ايديولوجى ، وبامكانية التأمل الاختيارى الهادف ، ان العناصر الايديولوجية فى الماركسية تتأتى من أنها تقوم بوظيفة كغيرها من الايديولوجيات ، وهى حمل الطبقة الكادحة وسائر العمال ، على العمل السياسى من أجل تحطيم المجتمع القديم وبناء آخر جديد ٠

---

١ ـ يقصد : فى يوغوسلافيا ٠

وتطالب طائفة من الماركسيين البولونيين التى تعتمد المفهوم الماركسى للايديولوجيا (باعتبارها تصويرا مشوها للواقع الاجتماعى ، بتخليص العلم وخاصة علم الاجتماع من اسار الايديولوجيا (١) ٠

وهناك طائفة رابعة تعتمد على الماركسية ولكنها تجعلها ضمنا تقيم فارقا جذريا بين الايديولوجيا التقدمية الاشتراكية والايديولوجية الرجعية البورجوازية ، ففى القاموس الفلسفى الذى وضعه (روزنتال) و (يودين) (Rezental et Yudine) نجد التعريف التالى للايديولوجيا : (الايديولوجيا منظومة من المفاهيم والافكار والمبادئ والتصورات التى تتبناها طبقة أو حزب سياسى ، أما الافكار السياسية والفلسفة والفن والدين فهى صيغ ايديولوجية٠ وايديولوجية الطبقة العاملة هى الماركسية اللينينية ، ذلك السلاح الذى يمتلكه الحزب الشيوعى ، وتمتلكه الطبقة العاملة فى ميدان عملها من أجل تحويل المجتمع تحويلا ثوريا اشتراكيا ٠ واذا كانت مثل هذه الايديولوجية تنمتع بقوة لاتقهر فلانها تعكس مباشرة القوانين الموضوعة للتطور التقدمى للمجتمع ، وتفيد كأداة للتعبير عن الحاجات الضرورية للتطور التاريخى فى العصر الراهن ٠

وتتغذ ردود بعض الفلاسفة السوفيات ازاء شرح كلمة ايديولوجيا كما فهمها ماركس أشكالا متميزة ٠ ففى مقالة حررها كامارى بعنوان (الاسطورة التعديلية) سنة ١٩٥٨ حمل على العالمين البولونيين (فاتر) و (بومان) لانهما قاما بتعريف الايديولوجيا على اعتبارها انعكاسا مشوها ومقلوبا للواقع الاجتماعى ، ويقول كامارى : ان جميع الذين يلمون الماما قليلا بتارخ الفلسفة يدركون لاول وهلة عند قراءة هذه السطور أنهم ازاء الادعاء القديم الذى نادى به الوضعيون ، الادعاء الذى يقوم على ضرورة تحرير العلم من كل ايديولوجيا ومن كل فلسفة ، اى تحريره فى الواقع من الفلسفة الماركسية) ، ويحاول

---

١ ـ فاتر و بومان (Vjatre et Baumann) : الماركسية وعلم الاجتماع المعاصر ٠

كامارى أن يدلل بالتالى ان كل عالم لايقوى ابدا على التحرر من اسار فلسفة او أخرى .

واضح أن كامارى يوجد بين الفلسفة والايديولوجية على غير اســاس ، ويمر مر الكرام على فكرة (فاتر و يومان) التى لم يقصدا من ورائها سوى عرض مفهوم ماركس وانجلز للايديولوجيا . ويتهم كامارى فى مكان آخر العالميــن البولونيين لا بالنزعة الوضعية ، بل بالوثوقية (Dogmatisme) فيقول : ان الوثوقيين المتصلبين هم الذين يستطيعون وحدهــم ان يستخلصوا من نقــد ماركس وانجلز للمفهوم المثالى للتاريخ حكما يدينون به كل ايديولوجيا يعتبرونها انعكاسا مشوها للواقع الاجتماعى) .

اننا مضطرون الى اعتبار هذه الطريقة فى المناقشة غير صالحة .

ان كامارى يعلم ان ماركس وانجلز قد حملا على الايديولوجيــا عامــة ، ويعلم أيضا انهما لم يعتبرا مذهبهما ايديولوجيا ، وانما علما . وحينما نمعــن النظر فى النصوص التى أدليا بها يتبين لنا بوضوح انهما لم يخصا حديثهمــا فقط ببعض الظواهر الخاصة بزمنهما ، بل أطلقا القول على ظواهر الايديولوجيا عامة . من هذه النصوص اذن ، نستنتج ، بأنه ما دامت هناك طوائف نوعيــة من الناس ينحصر كل همها فى ابداع نظرى لاتربطه رابطة بالممارسة الاجتماعية وما دام ثمة اناس متصدعون قد زايلتهم صفة الوجود الاجتماعى ، ومــا دام الناس يؤلهون منتجاتهم الخاصة فستظل الايديولوجية قائمــة بالمعنى الــذى يلبسه ماركس وانجلز لهذه الكلمة .

ان المؤلفين الذين ينتمون لهذه الطائفة الرابعة غيروا فى دلالــة كلمــة الايديولوجيا ، ولكنهم لايجاهرون بهذا التغيير ، بل يحاولون جر ماركس الى صفوفهم ، والى المفهوم الراهن ، ويتحاملون فى الوقت ذاته على أولئك الذيــن ظلوا أوفياء لمفهوم ماركس المحض ، موجهين اليهم تهمة «التعديليين» . ان عادة الرغبة فى الحصول على اتفاق مظهرى ، وبأى ثمن ، مع موقف السلطــات ازاء كل قضية ، سواء بدافع من نية حسنة او سيئة ، عادة غريبة عن روح العمــل العلمى ، بل تترتب عنها نتائج خلقية خطيرة ، اذ تفضى بصاحبها الى النفــاق

والمصانعة وهى من خصائص انسان ازدوجت شخصيتـه ، بل ، هـى نفـس خصائص الوعى الايديولوجى بالمعنى الذى منحه ماركس لكلمة ايديولوجيا .

من الواجب أن نميز بين شيئين اثنين طبقا لكتاب الايديولوجيا الالمانية عندما نتعرض لمفهوم الايديولوجيا الحـالى كما يتداولـه بعـض الماركسييـن السوفيات .

أولا ــ لاتعتبر الماركسية مجرد مذهب علمـى بل ايديولوجيـا ايضـا ، فاللحظة الايديولوجية فى المذهب تتجلى فى أن الماركسية توضح وضعية الطبقة العاملة واعباءها ومصالحها (١) ، فليس من مهمة العلم توضيح المصالح والاعباء الملقاة على كاهل أية طبقة . النظرية التى تعالج مثل هذه المواضيع تكتسى دون ريب طابعا ايديولوجيا ، اذا أخذنا بمفهوم ماركس الاول فى أوسع معانيه .

ثانيا ــ ان السياسة ، وخاصة السياسة اليومية تعمل على ابعاد العلـم ووضعه فى منزلة ثانيـة حين تحديـد مضمـون للماركسية اللينينيـة ، أو الايديولوجية الاشتراكية .

واذا كان التفسير الاول ــ كما يبدو لى ــ يبرر ذاته فان التغيير الثانـى لايسنده أى تبرير ، وقد تترتب عنه نتائج خطيرة على الحركة العمالية المعاصرة، فلو وازنا بين الجهود النظرية التى بذلت لبلـورة مفهـوم الايديولوجيا فـى السنوات الاولى التى عقبت ثورة أكتوبر والجهود المبذولة اليوم لتكشفت لنـا الفروق واضحة . عندما كان المفكـرون فى أول الامـر يتصـدون لشـروح الايديولوجيا ، كانوا يعالجون المبادىء النظرية الرئيسية للمذهب الماركسـى «مثل العلاقة بين الوجود المادى والوعى الاجتماعى ، والصبغة الطبقية للنظريات الاجتماعية» ، ثم أخذت ، فيما بعد ، التدابير التى يتخذها الحزب الشيوعـى

---

١ ــ كونستانتينوف **(Konstantinov)** الميزات الرئيسية للايديولوجيا الاشتراكية .

السوفياتي تحظى بأهمية بالغة «ومنها القرارات المتخذة في قضايا الادب والفلسفة ، والاقتصاد السياسي» (١) .

واذا أحببنا التعرف على مفهوم الايديولوجيا الراهن في البلاد الاشتراكية فان مقالة كوستانتينوف لاتخلو من طرافة في هذا الميدان ، ان السمة الاساسية للايديولوجيا الاشتراكية في نظره هي نزعتها الديموقراطية والقانونية والمؤسسات التي تعبر عن مصالح النزعة الديموقراطية الحقة والتي لا تنفصم عن الروح الاشتراكية قد انتصرت في الاتحاد السوفياتي وفي بلاد الديموقراطية الشعبية» .

وهكذا يبدو بديهيا لاول وهلة أن المرء قد يعتبر في حكم المحقق مايحتاج تحقيقه الى جهد طويل ـ اي الاشياء التي نعتبرها اليوم وخاصة في بلاد المعسكر الاشتراكي مثلا اعلى اكثر منها حقيقة واقعة ـ وهكذا نجد أنفسنا حيال تحويل نموذجي للواقع لايمكن أن يخضع لاى اثبات سوسيولوجي موضوعي .

ويورد كوستانتينوف اشياء طريفة أخرى ، كقضية العالمية ، ومبدأ المساواة ، والصداقة والاخوة ، والنزعة الانسانية وما الى ذلك .. على انالحملات ضد يوغوسلافيا تتنافى منافاة صريحة مع هذه الجمل الجميلة ، فالايديولوجية تلعب هنا اذن دور اضفاء طابع مثالي على الواقع ، ومحتواها كلمات سياسية لاتعكس العلائق الحقيقية بامانة . فماذا نقول عن مبدا الانسانية ؟ ان التحليل العلمي الموضوعي ليثبت أن ما بذل من جهد لاقامة شروط نمو حر لكل فرد ، وخلق علائق انسانية بين الناس (كالثقة المتبادلة ، والصفاء ، واختلاف الآراء) لا يمكن قياسه أبدا بالنجاحات التي تمت في ميادين أخرى، سيما في ميدان التقنية والحرب .

ويعدد كوستانتينوف خطوط الايديولوجيا الاشتراكية : انها نضال ضد النزعات السياسية الكونية ، وضد الفردية ، وضد البيروقراطية ، وضد الشعوذة ، وضد التشاؤم ، ولا شك أنه يضع اليوم على رأس القائمة النضال

---

١ ـ تمكن الموازنة بين الموسوعة السوفياتية في طبعاتها سنة ١٩٣٥ ، وطبعتها سنة ١٩٥٥ .

ضد التعديلية (Revisionnisme) ان هذه الكلمات يمكن ان تطلق عليها طبقا للاسلوب الصيني ، الامراض «الخمسة» او «الستة» ، فهي تكتسي طابعا اشتراكيا ، بيد ان المفاهيم تستقي محتواها ، وتمتلئ بمدلولها من خلال الاستعمال الذي يدخلها اوضاعا عملية معينة ، ولذا فان الممارسة التي تكمن خلف هذه الشعارات لاتكتسي في الغالب طابعا اشتراكيا ٠

لنضرب على ذلك مثلا ، فعندما بلغت الحملة ضد النزعات السياسية الكونية مداها في سنوات ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ، تعرض بعض الرجال لهجمات قوية لانهم لم يقدروا مساهمة الفلاسفة والعلماء والفنانين الروس في الثقافة العالمية خلال القرن التاسع عشر وما قبله ، لقد وجه التوبيخ للفيلسوف كيدروف لانه استنكر بعض البيانات التي تنادي بشوفينية روسيا الكبرى ، ولكونه اعتبر مسالة الاولوية والاسبقية مسالة تجاوزها تاريخ العلم ٠ ان الطموح الفردي الايجابي الذي قد يدفع صاحبه الى استغلال مواهبه في معارضة حالة متخلفة في الوسط الذي يعيش فيه ، هذا الطموح قد يوصم بالفردية ٠ اما البيروقراطية فان الذين يتصدون لها يتصورونها فقط محاربة الموظفين الذين يهملون واجباتهم ، ويقول كوستانتينوف : «ان الحزب الشيوعي ولجنته المركزية يخوضان حربا ضد البيروقراطية التي تعد راسبا مضرا من رواسب العهد الراسمالي ، وهكذا تغفل المشكلة الحقيقية للبيروقراطية ٠ ان الدولة في بداية المرحلة الانتقالية تلعب دورا تقدميا في الادارة الاقتصادية والاجتماعية ، غير ان تركيز السلطة تركيزا قويا في يد جهاز الدولة او حزب مركزي يستحوذ على كل شيء من شانه ان يقود حتما الى العيوب البيروقراطية التي تعتبر نتائج لا محيد عنها لنظام من هذا النوع ، وتبرهن التجربة على أن ادارة الحياة الاجتماعية برمتها بواسطة جهاز الدولة تقود الى انفصال هذا الجهاز عن المجتمع، لانه يفرض حينئذ نفسه كقوة متعالية ٠ ان استقلال البيروقراطية يتجلى خاصة في وضعية مادية متخلفة ٠

اما الفرح والتفاؤل فهي خصال جميلة جدا ، تتجلى عند الافراد الاسيوياء الذين يتمتعون بتوازن وسعادة ، والذين استطاعوا تنظيم حياتهم وتفتحت امامهم آفاق شخصية واجتماعية ٠

ولكن ماذا يفيد ادعاؤنا بان الايديولوجيا الاشتراكية هى الطبع المرح وهى التفاؤل ، وان الرجعية البورجوازية تزرع فى الناس روح التشاؤم والانهيار والياس ، اننا لانستطيع تطبيق هذه الخصائص بكيفية مطلقة مهما تكن صائبة فى الحقيقة ، وحمل الناس بقوة على الشعور بهذه المشاعر يؤدى فى الواقع الى نضوب الصدق والعاطفة ، بل يؤدى الى فقر مدقع فى ميدان الفن الذى ما عاش ولن يعيش ابدا على جملة وحيدة من العواطف ٠

اننا لانستطيع ان نفرض على الناس ما يجب ان يحسوا به ، بدل احساسهم الفعلى ، ان صيغة الفرص تلزمهم بالتصنع فى الانتاج ، او التخلى عن روح الخلق ، أو التعرض لهجمات ايديولوجية محبوكة ومبتذلة ٠

اما الوثوقية التعديلية فكلمتان تستعملان بطريقة تعسفية فى المساجلات الكلامية ، والمثال على ذلك موقف بعض العلماء النظريين السوفيات حيال اولئك الذين يسعون لتحقيق الصيغة الكلاسيكية لانجلز فى تحطيم الدولة القائمة بعد انتصار الاشتراكية ، فقبل اعوام كان يعتبر هؤلاء وثوقيين ، امام اليوم فانهم يسمون النظريين اليوغوسلاف ، ولنفس السبب بسمة التعديلية ٠

ان لينين عندما تصدى للايديولوجيا الاشتراكية كان يفكر فى نظرية تقوم على اساس من العلم والتحليل الموضوعى للعلائق الاجتماعية ٠ اما اليوم فعندما يتعرض بعض الماركسيين للايديولوجيا الاشتراكية يفكرون فى جملة من المفاهيم والشعارات التى تروجها قيادة الحزب فى فترة معينة ، وهكذا يستعمل مذهب ماركس وانجلز ولينين مستودعا تستخلص منه لدى الحاجة شهادة أو أخرى دون مراعاة للسياق العام تتفق مع التوجيه السياسى اليومى٠ ولقد اكدوا بان العامل الذاتى يلعب دورا حاسما خلال المرحلة الانتقالية ، وقد يكون الامر صحيحا لو اعتبرنا العامل الذاتى جميع القوى التى تبنى مجتمعا جديدا على معرفة بالوضعية وبالاتجاهات الموضوعية ، ولكن الذى يحدث ان العامل الذاتى يعتبر ممثلا فى بعض الاشخاص ان لم نقل ممثلا فى شخص واحد يوجد على رأس الحزب ٠

باسم الايديولوجيا الماركسية نفرض على الكتاب أن لا يرسموا سوى الجوانب المضيئة من الحياة السوفياتية وأن يشيدوا بالابطال الايجابيين

والبناة ، ونطالب الموسيقيين بالتخلي عن لغة الموسيقى الحديثة والعودة الى تشايكوفسكى ، والفلاسفة نمنع عنهم دراسة المنطق الصورى ثم نفرض عليهم فيما بعد وضع كتاب فى هذا المنطق بالذات كيما ينسجم تفكير المواطنين فى الاتحاد السوفياتى • وثمة ميدان كامل من العلم وعلم الاجتماع أهمل نهائيا ، وقد سبق لماركس وأتباعه أن اتخذوا موقفا ديكتاتوريا تجاه اللغات فى فترة معينة ولكن ستالين غير رأيه ، ثم عاد مرة ثانية الى تشديد الخناق على اللغات• وقد اضطهد عالم الاقتصاد السياسى فارگا (Varga) كما تعرض ليسنكو (Lissenko) مدة طويلة لمعارضة علماء الاجنة ، ثم كان كافيا أن يعلن فى اجتماع البيولوجيين أن اللجنة المركزية قد وافقت على تقريره حتى تصفق له الاغلبية وتبارك أعماله وتدين خصومه •

لا يستطيع احد فى بلاد تتأصل فيها مثل هذه العادات أن يفهم كيف يمكن لسياسى محترف متقل بالاشغال مهما بلغت عبقريته أن يدلى بدلوه فى الشعر والفلسفة وفى علوم اللغة وعلم الاحياء ، والى أى حد يمكن ان تكون تدخلاته مفيدة ، بل كيف يمكن للعلم والفن أن يزدهرا اذا كان عليهما ان يخضعا للسياسة اليومية من الناحية المبدئية •

اننا لانبرر هنا مبدأ الفن للفن ، ولا مبدأ النزعة العلمية مهما تكن الازياء التى تتزيى بهما ، فلا يستطيع العلماء ولا الفنانون عزل أنفسهم عن المجتمع ، وما داموا يبدعون للمجتمع ومن أجله ، وما دام المجتمع فى بلد اشتراكى يؤمن لهم شروط عمل سوى فهم ملزمون باخضاع نتائج فعاليتهم للمجتمع : وهو مستعد ليمنح تقديره لهم اذا فهموا حاجاته وغاياته واذا استوحوا المثل التقدمية والانسانية وراعوا فى علائقهم وخصوماتهم التى لا محيد عنها المسلمات الخلقية الاساسية •

فليست القضية قضية تدخل أو عدمه ، ان المجالس العلمية والفنية والجامعية والسينمائية تعد شكلا من أشكال التدخل (بل شكلا ناجحا وكاملا) تقوم به القوى الاشتراكية الواعية فى المجتمع ، لكن الامر يتعلق بالكيفية وبالمبادىء التى باسمها يقع هذا التدخل •

هل ينبغى ان نفرض التعليمات من الخارج ، من التجمعات الحزبيـة او يكفى أن نساعد المدعين على أن يجدوا لانفسهم فى ميدانهم الخاص ، ومن خلال احتكاك افكارهم ، النظريات العلمية التى يستطيعـون بها قهـر الاتجاهـات السلبيـة ؟

ان عكس الخطة التى تسير عليها رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف فـى مثل هذه القضايا والتى توجد مبادئها مسطرة فى برامجها قد أدى فى بعض بلاد المعسكر الاشتراكى الى ركود فى جميع الميادين ، وهكـذا تجلت ظاهـرة غريبة يمكن أن ندعوها بظاهرة هجرة العبقرية الوطنية نحو القطاعات التـى يغدو فيها الابداع حرا وطليقا من قيود الايديولوجية ، نحو ميادين الرياضيات والالكترونيا أى نحو العلوم الطبيعية والتكنيك بصفة عامة ، ويلاحظ ان بعض فروع الفن التى يصعب على بعض المتطفلين حشر أنوفهم فيها بغية استغلالها لاغراض سياسية لم تتأثر الا قليلا بالنسبة لبقية الفروع التى يمكن لاى كان ان يصدر فى حقها احكاما تعسفية كالادب والرسم ٠

على أن النتيجة الاخرى لمثل هذا التطبيق الايديولوجـى هى التعريـض بمفهوم الايديولوجيا ذاته وتشويهه ، وهذا ما يلقـى ضـوء على التجاء بعـض الماركسيين الى المفهوم البدائى الذى البسه ماركس لكلمة الايديولوجيا حيـن طالبوا بتحرير الماركسية من كل عنصر ايديولوجى باعتبارها علما ٠

ولا يتملكنا العجب اذا رأينا مثل هذا الاتجاه يوسم بالتعديلية فى اغلبية بلاد المعسكر الاشتراكى ، فقد نال أهمية خاصـة فى النـدوة الايديولوجيـة المخصصة للمشاكل الراهنة لمحاربة النزعة التعديلية المنعقدة فى براغ بين ١٦ و ١٧ اكتوبر ١٩٥٨ ، وكان التقرير الرئيسى الذى قدمـه سكرتير اللجنـة المركزية للحزب الشيوعى التشيكى السيد فلاديميـر كوكـى فد أبان بـأن التعديليين يسعون الى التفريق بين الماركسية باعتبارها علما محضا ، وبيـن الماركسية باعتبارها جملة من المطامح الايديولوجية واداة سياسية ، وذكر آراء كل من بيير هرفى (Pirre Hervé) وهنرى لوفيفر (Henri Le Fèvre) والبولونى كولاكوفسكى (L. Kołakovski) ولكنه لم يقم بتحليل نظـرى

وانتقادى لمفاهيم هؤلاء ، بل ادل باتهامات تتعلق (بنشاط الانفصاليين في صفوف الحزب) (ودورهم التخريبي الموجه ضد الحزب الشيوعي الفرنسي) ومحاولتهم (فصل الماركسية عن الحياة وتحويلها الى نظام من الاستاذية) .

على اننا بعد مزيد من الروية نتوصل الى أن كوكى يناهض التمييز بين العلم والايديولوجيا فى المذهب الماركسى للاسباب التالية :

١ ـ لان هذه العملية (تبعد الماركسية عن السياسة الثورية التي تخوضها الاحزاب الشيوعية وتحرمها من فعاليتها العملية) (وتصفى جوهرها الثورى) ثم ان هذا التمييز بدوره (ميتافيزيائى) .

٢ ـ عندما نميز الماركسية باعتبارها علما ، والماركسية باعتبارها ايديولوجيا يتجلى لنا نوع من الموضوعية البورجوازية ، ويتجلى لنا فى نهاية التحليل نوع من الكبرياء التى يحملها المفكرون نحو الطبقة العاملة التى لايمكن طبقا لهذه الافكار الا أن تلطخ النظرية الثورية لنزعتها الذاتية المنبعثة من طبقيتها .

اننا لم نتبين من خلال هذه المناقشة كلها فيما اذا كان الامر يتناول مسألة التمييز بين العناصر الايديولوجية والعناصر العلمية فىالمذهب الماركسى أم يتناول فصل الماركسية فصلا تاما باعتبارها علما محضا دون اعتبار علاقتهما بالممارسة الثورية التى يقود اليها تطبيقها يحتمل أن يكون فيلسوفا أو عالم اجتماع او عالم اقتصاد يحل بعض المشاكل العلمية فى اطار بعض المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والفلسفية ، وقد يسدى هؤلاء خدمات جلى بعملهم هذا للحركة العمالية ، ولكنهم لن يعتبروا ماركسيين ، لان خصائص الماركسية تكمن فى الحماس ، والارتباط بين النظرية والممارسة ، والعمل الثورى لتحويل العالم ، وليس ماركسيا كذلك من يشرع فى ممارسة سياسة لا نستوحى قواعدها من تحليل موضوعى علمى للواقع الاجتماعى ولقوانين التطور . ان هذا المظهر المعادى للماركسية والماثل فى الفصل بين العلم والسياسة غفل كوكى عن ذكره ، فهل كان ذلك محض صدفة ؟

لو كان الامر يتعلق بتمييز اللحظة الايديولوجية من اللحظة العلمية فى المذهب الماركسى لهانت القضية ، اذ ان التعريف الصائب وتحديد المفاهيم من

شأنهما أن يساعدا كثيرا على وضوح التفكير واشراقه ، بل هما من شروط المعرفة الحقة ، فهل كان كوكى يعتبر العلم والايديولوجيا شيئا واحدا ؟ ولماذا يصبح تمييز المفاهيم الدالة على صيغ مختلفة للوعى الاجتماعى نمطا من (الموضوعية البورجوازُية) ومن (كبرياء المفكرين نحو الطبقة العاملة) ؟

من المؤكد أن تحليلا من هذا النوع يبرهن ان أشياء كثيرة ليس لها اساس علمى تعتبر اليوم جزءا من الايديولوجيا الاشتراكية ، وان المعنى العلمى لكل تمييز بين اللحظة العلمية واللحظة الايديولوجية فيما يجرى اليوم تحت اسم الماركسية اللينينية يكمن فى البحث عن الاهداف والمهمات التى تحددها برامج الاحزاب العمالية الحالية ، وفى القاعدة العلمية التى تتوفر عليها ثم فى البحث عن الاحزاب التى لاتتوفر على هذه القاعدة والتى حشرت نفسها بطريقة تعسفية فى اطار الحركة العمالية ، ولعل هذا ما كان يرغب فى اجتنابه من يفكرون على طريقة كوكى .

كيف ينبغى اذن أن نحدد مفهوم الايديولوجيا ؟ يبدو من الضرورى تعميم مفهوم ماركس ليصبح مطابقا للاستعمال المقبول والمتداول والذى يعتبر الاشتراكية العلمية ايديولوجيا ، على أنه من المحال العودة فيما يخص هذا الموضوع الى الاعمال التى انجزها ماركس فى شبابه عودة بسيطة ، اننا لا نستطيع أن نعرف الايديولوجيا (بأنها وعى اجتماعى ناقص ومقلوب) ، ثم نتحدث فى الوقت ذاته عن ايديولوجية البروليتاريا الثورية التى تصلح نبراسا لخلق مجتمع أكثر تطورا واكثرا انسانية ، ففى الحالات الاستثنائية فقط تؤدى المعرفة الناقصة الى ممارسة غير فعالة وذات نتائج مخالفة لما كنا نبحث عنه .

ليس من قبيل الصدفة أن نطلق كلمة ايديولوجيا غالبا على نظرية للحركة العمالية بقطع النظر عن العيوب التى اتينا على ذكرها ، فنظرية ماركس كانت نظرية للثورة فى البلاد المتقدمة ، وكان كل همها فيما يبدو ينحصر فى مراقبة خط التطور الذى لم يكن للمجتمع محيد عن السير فى طريقه ، ولهذا اعتبر ماركس تنبؤاته ذات طابع علمى لانها كانت تتعلق بمستقبل قريب وفى هذا المعنى يقول : (ان الطبقة العاملة لاتمتلك أية طوباوية جاهزة تريد ادخالها باسم

الشعب ، كما انها لاتعمل على تحقيق مثل ، بل تعمل فقط لتحرير عناصر المجتمع الجديد التى كان المجتمع البورجوازى القديم يحملها) (١) ٠

والذى حدث أن الثورات الاشتراكية الاولى انما قامت فى بلاد متاخرة قليلا أو كثيرا حيث تسود فيها تناقضات أقوى من التناقض القائم بين الحركة العمالية والبورجوازية ، فالقضية اذن ليست قضية تحرير عناصر المجتمع البورجوازى القديم المنهار ، ان مثل هذه العناصر كان لابد من خلقها أولا ، والمجتمع الجديد فى هذه الحالة مثل حقا : مثل لا يتم تحقيقه الا اذا كانت بعض الشروط الموضوعية الاساسية (سياسية واقتصادية) متوفرة ، ان نمو الثورة فى هذه الحالة لم يكن حادثا ضروريا يكفى فقط أن نتتبعه ونراقبه ، انه حادث ينبغى أن تتجلى فيه ارادة الثورة ٠٠ الثورة ينبغى أن نكافح من أجلها وأن نهيئها ، انها ليست سوى امكانية من جملة الامكانيات الاخرى ، وبهذا يغدو العامل الذاتى ذا اهمية اكثر ، فالتجربة تبرهن على ان الناس اذا كانوا يمتلكون صورة صحيحة وعلمية عن الوضعية الاجتماعية ، وكان لهم فى الوقت ذاته استعداد لعمل (المستحيل) ولتجاوز ذواتهم يستطيعون تحقيق المثل التى قد يصبح تحقيقها أقل احتمالا بغير انخراط الجماهير فى تحقيقها ٠

وتبرهن التجربة ايضا ان الوعى الطبقى للبروليتاريا يضم بجانب مظهره العقلى والعلمى مظهرا آخر عاطفيا وقيميا ، ولذا فان ظاهرة الايديولوجيا البروليتارية ينبغى الا تفسر بغير هذا التفسير ٠ الايديولوجيا اذن هى جملة من الافكار والنظريات بواسطتها تعبر طبقة ما عن مصالحها واهدافها ومعايير نشاطها ٠

على أن الايديولوجيا فى نظر ماركس حالة خاصة من هذا المفهوم، فعندما يتعلق الامر بطبقة استغلالية فانها تحاول التعبير عن مصالحها وأهدافها وحاجاتها بمظهر عقلى مزيف ، وفى جملة من النظريات التى تعكس صورة خاطئة وناقصة للعلائق الاجتماعية الواقعية ، ان ما نتصوره ايديولوجيا

---

١ ـ ماركس : الحرب المدنية فى فرنسا ٠

بروليتارية ـ طبقا لتحليل ماركس ـ يمكن فى بعض الشروط أن يكون ايديولوجيا فى حدود هذا المعنى الخاص ، ان الطائفة التى تحكم فى مجتمع يريد بناء الاشتراكية عندما تكون لها مصالح خاصة معارضة لمصالح الجماهير ، وعندما تكون فى صفوف هذه الطائفة فئة محظوظة من المفكرين الذين لا شغل لهم سوى القيام بنشاط نظرى لحساب الطائفة الحاكمة ، وعندما تتجلى فى ذات الوقت ظواهر استلاب وتقديس للمنتوجات ، وعبادة للمؤسسات الانسانية ، نصل حتما الى تأويل الواقع وتمجيده ، ونصل الى انشاء خرافات وضلالات نعتقد من النافع أن تؤمن بها الجماهير وتتعلق بها ، اننا بكلمة واحدة نعكس الواقع عكسا مشوها وناقصا ، وان خالقى هذه النظريات حول العالم، يتوصلون الى الاقتناع ذاتيا بأن مصالحهم مطابقة لمصالح المجتمع كله ، وان طريقتهم فى العمل هى الطريقة الوحيدة الممكنة لتحقيق الاشتراكية ، ولهذا فان ايديولوجية الطبقة العاملة ، ما كانت ، ولن تكون وعيا مزيفا وناقصا ، فالبروليتارية ليست لها مصالح خاصة مغايرة لمصالح بقية المجتمع ، ان النظريين الخلص الحقيقيين هم الذين ينخرطون فى ممارسة تهدف لتحويل المجتمع وخلق علائق جديدة أكثر انسانية • لا أوثان للشيوعى الحقيقى ، انه يعلم أن الالهة صنعتها خيالات البشر ، ولذا فهو ملحد باقتناع ، ويعلم أن المال ليس سوى رمز لقيمة هو خالقها • فامتلاك المال اذن ، وامتلاك مقادير ضخمة منه كفاية فى ذاته ليس مفتاح حياة سعيدة غنية فى محتواها • ان السعادة هى تفتح الفرد وتفتح الاشخاص الذين يحيطون به تفتحا كاملا ، انه يعلم أن المال لايصلح الا وسيلة لتحقيق قيم اعمق وأنقى للحياة ، وهو يفكر اخيرا بان الحزب والدولة وباقى المؤسسات الاخرى فى الدولة الاشتراكية ، ليست سوى وسائل لخلق مجتمع أفضل وأكثر انسانية ، ولضمان مزيد من الحرية الفردية ، وليست تلك المؤسسات ابدا غاية فى حد ذاتها ولا قوة استلاب تتحكم فى الناس بصورة تعسفية •

الماركسية الحقيقية هى توحيد بين لحظتين مختلفتين : اللحظة العلمية، واللحظة الايديولوجية ، ان العلم يلاحظ ويفسر ما هو كائن ، وما كان ، وما

سيكون ، بينما توضح الايديولوجيا ما ينبغي أن يكون ، وما نتطلع اليه ونرغب فيه ، وما هو من صميم مصلحة الطبقة العاملة .

ان توحيد هاتين اللحظتين فى اطار المذهب الماركسى ناجم من ان أهداف الطبقة العاملة ومثلا لايمكن تحديدها الا على قاعدة التحليل العلمى للمجتمع الراهن ، ولابد أن تكون هذه الاهداف والمثل مطابقة للاتجاهات الواقعية للحركة الاجتماعية . ان الطبقة العاملة ، طبقا للنظرية الاشتراكية العلمية ، لايمكن ان تطرح على نفسها الا المهمات التى يكون تحقيقها مرهونا بشروط قائمة وكافية، بحيث يصبح كل ما هو ممكن من الناحية الموضوعية ، أمرا واقعا بفضل طاقة الجماهير العاملة . وتكمن وحدة العلم والايديولوجيا التقدمية ، من جهة اخرى فى أن الابحاث العلمية تستوحى مثلا انسانية للمجتمع المقبل وتتجه الى ابداع أوسع والى تحرير الانسان تحريرا كاملا من القوى التى تحط من قيمته وتقيده وتذله .

ويتمثل العنصر العلمى فى المذهب الماركسى فى جملة من القضايا تشرح وتصف العالم والمجتمع الانسانى خاصة ، وتستجيب للمنهجية العلمية ، اى تكون قابلة للتواصل (مصوغة بدقة تصبح الكلمات معها واضحة وضوحا جماعيا) ، ومعللة نظريا ، وقابلة للتطبيق عند الممارسة ، حيث يمكن التحقق منها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، او يمكن استعمالها قاعدة لاستنتاج قضايا اخرى يمكن التحقق منها . ويتجلى كتاب (راس المال) ، كمثال على الروح العلمية فى الانتاج الكلاسيكى الماركسى .

تعتبر اذن ذات طابع ايديولوجى القضايا التى تتناول المهمات الملقاة على عاتق الشيوعيين ومسائل التنظيم ، والشيوعية كغاية نهائية ، وما يجب ان يكونه الشيوعى ، بيد أن المسالة المطروحة فى مثل هذه القضايا هى معرفة ما اذا كانت تعبر حقا تعبيرا صحيحا عن مطامح ثورية للطبقة الكادحة ، وأين يكمن الاختلاف بينها وبين الاحكام العلمية (ذات الطابع الشمولى) ، وهذا ما دعا لينين ليقول اثناء مناقشته لمارتوف (Martov) ان كل عضو فى الحزب الشيوعى يندمج فى منظمة أساسية لايطرح مشكلة انعكاس وضعية الحدث ، وانما يطرح مشكلة الفعالية فى النضال من أجل الاشتراكية .

ولكي تكون القضية الايديولوجية مطابقة للهدف المنشود وفعالة من الوجهة العلمية ينبغى ان تستند على معرفة موضوعية صحيحة بالاحداث وبمستوى التطور الاجتماعي وتطور المعرفة لدى الجماهير ، ولناخذ مثالا آخر: ان نظريات ماركس حول الانسان «الكل» ، والغاء الاستلاب فى المخطوطات الفلسفية الكلاسيكية ليست صحيحة اذا اعتبرناها اثباتات لوضعية معينة من الاحداث ، انها تصف شيئا ينبغى ان يتحقق ، ولكن ، وهذا ما تجدر الاشارة اليه ـ لكى يصبح الوصف عنصرا من عناصر ايديولوجية علمية لابد ان يبنى بناء علميا • علينا ان ندلى بالدلائل التى تبرهن على ان الفئة الاكثر تقدمية فى المجتمع تسير فعلا فى الاتجاه الواقعى لحذف الاستلاب وبناء الاشتراكية وتجاوز طراز الوجود المبتذل وغير المتكامل • على هذا النمط فقط تكتسب القيم والمعايير والمثل تبريرها العلمى وتخرج عن كونها ويثيوبيات وصبوات ذاتية ، واساطير ذرائعية (Pragmatistes

ان وضع الفواصل بين العناصر العلمية والعناصر الايديولوجية يصطدم بمصاعب تمثل فى ان رؤى المستقبل البعيد من العسير تمييزها من النبوءات العلمية ، وعلينا الا ننسى ان علم الاجتماع لم يتطور تطورا كافيا ليتيح اصدار تنبؤات صالحة لامد طويل ، ان الظواهر الاجتماعية معقدة ايما تعقيد • على انه من حقنا ان نتساءل عما اذا كان علم الاجتماع سيصبح قادرا على القيام بمثل هذه التنبؤات ان حصل على درجة مرتفعة من التقدم • ان تنبؤات علم الاجتماع ستظل شرطية ما دامت تحوى قيما متحولة ، على راسها السلوك الجديد في هذه الحالة مثل حقا : مثل لا يتم خلقها اولا ، والمجتمع الجديد في الانسانى ، وعلينا الا ننسى ان للناس استعدادات فطرية ووراثية واخرى مكتسبة تختلف من شخص لآخر ، وقد تظهر بصورة مفاجئة ضمن وضعية جديدة ، ولذا فان عالم الاجتماع لايعرف معرفة كاملة جميع الشرائط الاولية ، ولا كل العوامل التى تؤثر في مجرى الاحداث ، واذن فتنبؤاته تظل ذات طابع فرضى • ان نصا ايديولوجيا يصف آفاق النمو الاجتماعى اعتمادا على وجهة نظر طبقية قد لايدخل فى حسابه جميع هذه الاعتبارات لاسيما اذا كان الامر يتعلق بتنبؤات لامد طويل ، انه فى الغالب يخطط للمستقبل أهداف الطبقة

التى يعنى بها ، ولذلك تكتسى مثل هذه التنبؤات طابعا مبسطا وحتميا . ولهذا عندما وصف انجلز تطور انحلال الدولة فى كتابه (من العلم الى الايثوبيا) فان كلماته رغم ما تتسم به من قطعية وجزم ، ما كان ينبغى أن تفهم على أنها تنبؤ بشىء ينبغى حدوثه مباشرة وبعد أن تستولى الطبقة العاملة على السلطة، فالواقع أن البروليتاريا قد استولت على السلطة فى بلاد عديدة والدولة لم تخل بل زادت قوة ورسوخا . ان ماركس وانجلز قد منحا العمل الانسانى والارادة الانسانية اهمية كبرى فى تغيير الظروف التى يوجد عليها الانسان ، وهذا ما يدل على أن انجلز لم يكن فى مقدوره أن يفكر فى تنبؤ حتمى دقيق .

بين أيدينا اذن برنامج للعمل ، وصف لما ينبغى ان يحدث ، ولما على الطبقة العاملة ان تقوم به اذا كانت ترغب فى تحقيق امكانيات موضوعية لبناء مجتمع بدون استغلال او اضطهاد : فليست الملاحظة هنا ملاحظة عملية محض تدخل فى حسابها ببرودة وحياد كل الآفاق مع تحديد ما لها من احتمالات ، اننا لانتوفر الا على وصف لافق واحد ، الافق الذى يتفق مع مثل الطبقة الكادحة ، ولكن لابد أن يرتكز الوصف على حوادث علمية ، ونشير الى بعضها فيما يلى :

١ ـ ان تطور الراسمالية سيؤدى بالضرورة الى تحويل الملكية الخاصة الى ملكية الدولة ثم الى ملكية المجتمع .

٢ ـ ان الطبقة الكادحة لايمكنها ان تتحرر ما لم تستلم زمام السلطة ، وواضح ، أن لا مصلحة لهذه الطبقة فى استغلال غيرها ، من الطبقات ولذا فحاجتها الى الدولة ليست حاجة دائمة ، على أن التجربة تطرح امام اعيننا حادثا ثالثا ، ان وجود الدولة يقود بالضرورة الى بيروقراطية بقدر ما لجهاز الدولة من قوة ، ومن تعدد فى الوظائف .

وان جميع النظريات الايديولوجية التى لاتمتلك مثل هذه القاعدة العلمية الموضوعية تعتبر شعوذة يمكن وضعها فى مستوى واحد مع الايديولوجيات غير العلمية التى حاربها ماركس .



يطلب من :

مطابع المغرب الكبير

٥٢ ، شارع السنغال ـ الرباط

تليفون : ٥٥ـ٢٧٤